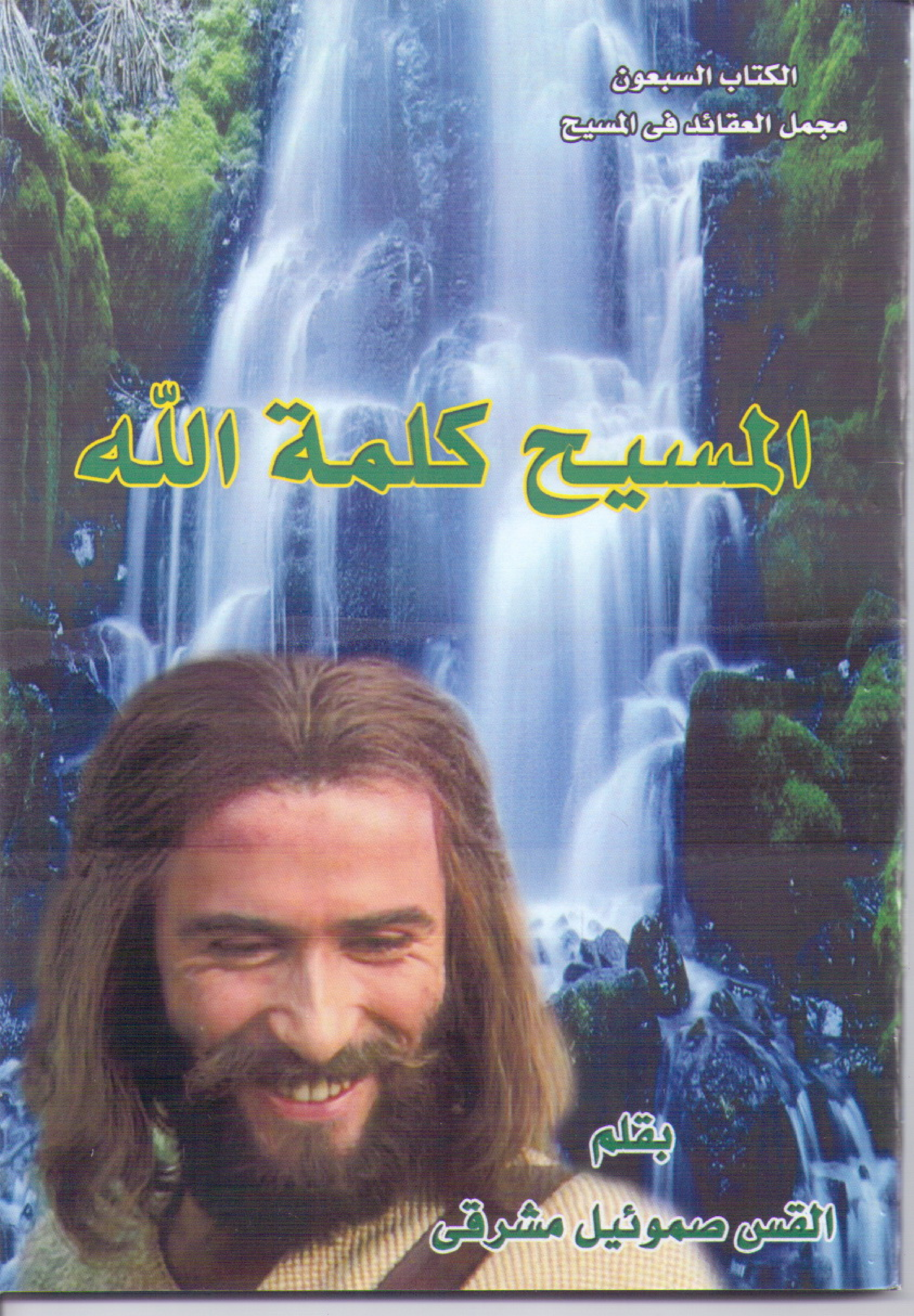

الكتاب السبعون

مجمل العقائد فى المسيح

المسيح كلمة الله

بقلم

القس صموئيل مشرقى

الكتاب السبعون
مُجمَل العقائد فى المسيح

المسيح كلمة الله

CHRIST THE WORD OF GOD

بقلم
القس صموئيل مشرقى
رئيس مجمع كنائس الله الخمسينية
بكالوريوس لاهوت

(جميع الحقوق محفوظة)

صدر بالقاهرة فى يناير سنة ١٩٨٩
عن الكنيسة المركزية للمجمع ٨ ش أحمد باشا كمال — جزيرة بدران شبرا مصر
ت : ٧٧٥٦٧٦

مقدمة تراث معلم الاجيال

القس صموئيل مشرقى رزق

بعد ان رحل عن عالمنا هذا الرجل العظيم فى فبراير ٢٠٠٩ وترك لنا اكثر من ٦٠٠٠ عظة مسجلة و ١٢٣ كتاب واكثر من ستون مؤتمرا وخدم جيله بامانة لاكثر من ستون عاما وجدنا حاجة المكتبة العربية والمصرية بوجه خاص لهذا التراث الثمين فقد وجدنا من الكتب المطبوعة اكثر من ٧٣ كتاب نفذت طبعاتهم فوضعنا على عاتقنا انقاذ هذاالتراث الثمين من الاندثار وحتى الان انجزنا اعادة طبع حوالى ٤٠ كتاب من اروع ما كتب ق . صموئيل مشرقى فى الدفاعيات والالهيات واللاهوت والمؤتمرات التعليمية ونصلى من قلبنا ان يكون هذا المجهود لمجد الله وامتداد ملكوته وتكريما لهذا الرجل الذى افسح المجال لعمل الروح القدس بداخله ليعزف على اوتار قلبه اروع النغمات ليخدم بها الهه ويمجده

لك عزيزى القارئ نقدم هذا التراث ونضعه بين يدى مسيحنا الحى ليعلو ويتمجد اسمه فى سموات بلادنا

محرر ومراجع التراث

د . ق . ديفيد عياد فخرى

راعى الكنيسة ورئيس مجمعها

تقديـــم

لا شك إن اتجاه الأدباء المعاصرين إلى الكتابة عن الشخصيات الدينية أصبح موضوع مناقشة فيما بينهم ، فجاءت كتاباتهم عامة مسخا وتزيفا للحقائق الإيمانية والتاريخية ، لأن لكل شيء برهاناً من نوعه وهيهات أن تبرهن العقائد الدينية بعيداً عن نصوصها المترابطة ومراجعها الأصلية ...

ولذلك فقد قيل : « إن المعلومات القليلة تخرج الناس من ـــ الدين ـــ بينما البحث العميق يعيدهم إليه » ، وذلك لأن البحث هو الواسطة الوحيدة للتمييز بين العقائد وتقرير صحيحها من فاسدها لإظهار الحق من الباطل . كما قيل أيضا : « الحقيقة بنت البحث » وهى تبعا لذلك مشاع لا يمكن الحصول عليها بالإيمان الوراثى المجرد أو الجدل العقلى البحت بل البحث المضنى الشاق الكثير العناء !

• • •

على هذا الضوء ظهرت الدهشة لنقاد المسيحية فى الشرق الذين ينقلون عن مدارس النقد العصرية فى الغرب اقوالاً غريبة لا تهدف إلا للطعن فى أساسيات المسيحية والإدعاء عليها ـــ زورا وبهتانا ـــ بأنها دين لا يستسيغه العقل ، بل بلغ بهم الإفتراء إلى حد القول بأن من يقبل المسيحية الحالية عليه أن يلغى عقله (كتاب دراسات فى العقيدة فى ضوء العقل والعلم ص ٤١) .

وجوابنا هو أن الحقيقة الدينية ـــ بوجه عام ـــ فوق أدلة الاثبات أو النفى ، وإلّا تعرض الوحى للخضوع للعقل ، وهذا أمر محال فى حد ذاته ، إلا أن ذلك لايمنع دور العقل من المعرفة لكى تتبين له الحقيقة رغم الآراء المتصارعة حولها ، والتى لا يعتبر وجودها فى أى دائرة من دوائر المعرفة البشرية إنتقاصا لها وإعتبارها لهذا السبب عديمة القيمة ، وذلك دون تجاهل أسباب الوجدان الانسانى التى تنبعث من البديهة بخبرتها المباشرة وهى لا تقف عن حد الدليل المنطقى بالطبع ...

• • •

على هذا الأساس إتجهت إلى هذا البحث الدقيق العميق الذى خاض فيه كثيرون بغير قدر كاف من العلم ، فلم يصلوا إلى اليقين الواجب بشأنه ، ولذلك فقد صدعت للأمر الآلهى الذى كلفنى بإصدار هذا الكتاب عن : « المسيح كلمه الله » وذلك لإنارة الأذهان وتبديد الحيرة التى أثارتها بلبلة الناقدين لجيل النصف الثانى من القرن العشرين .

وفقنا سبحانه وهدانا إليه لضمان مصيرنا الأبدى آمين ،

المؤلف

« العقيدة المسيحية فى المسيح الكلمة »

« نؤمن بأن يسوع المسيح هو كلمة الله الأزلى ، الذى كان فى البدء عند الله معادلاً لله بوحدانية الجوهر الإلهى ، وأنه هو الذى به كان كل شىء وبغيره لم يكن شىء مما كان ، لكنه بإرادته أخلى نفسه مرسلا من الآب إلى العالم بغير انتقال ولا انفصال ، فصار الكلمة جسداً بغير استحالة ولا إمتزاج ولا إختلاط ولا تغيير »

الفصـــل الأول

تعريف الكلمة فى اللغة

« يتراءى للبعض أن (الكلمة) تعنى مجرد النطق أو الكلمات المنطوقة ، لكنها فى الواقع لاتقف عند هذا الحد ، بل تذهب فى معناها الى أبعد من ذلك بكثير »

• **المعانى التى تقال فى لفظ الكلمة :**

إن كلمة تقال فى اللغة أولاً عن (نظرة وتفكير) العقل الطبيعية التى بها يتحرك ويعقل ويفتكر وثانياً تقال عما فى داخل الضمير الناطق فى القلب و ثالثاً تقال عن الكلام الملفوظ المعبر عما يخطر فى القلب أو النفس ...

أما الكلمة الأولى فهى إدراكات عقلية لتصورات معينة و أما الثانية فهى كلام مضمر فى القلب فى حين أن الثالثة هى المفيدة بما فى الضمير . وبذلك لا يمكن تخيل **العقل** قط خاليا من **الكلمة** ، ومع أن كلمتنا بارزة من العقل لكنها ليست كليا مع العقل شيئا واحدا ولا هى أيضا بالكلية شىء آخر — بل بالنسبة لورودها من العقل فهى شىء آخر غير العقل و إما لإظهارها العقل ذاته فليست بالكلية شيئا آخر غير العقل ، ومن ثم فإنه بحسب الطبيعة فالكلمة والعقل شىء واحد ، وأما بحسب الموضوع فالكلمة شىء آخر غير العقل !

ولهذا فقد قيل فى معنى الكلمة : « إنها التعبير عما خفى فى العقل أو إظهار وتوصيل ما إستتر فى الفكر » : فإن كلمة الانسان موجودة باطنيا فى عقله قبل أن تنطق بها شفتاه فتصبح مسموعة ومعروفة لدى الآخرين ... ولذلك فإن الكلمة عندنا تقال على أنواع فهى على الأظهر والأغلب وصف لما يُخرج باللفظ وهو يصدر من الداخل ظاهرة

فى أمرين **اللفظ نفسه ومعناه** : فإن اللفظ يدل على صورة العقل إذ هو يصدر عن المعني أو التصور وهو يوصف هكذا من طريق دلالته على صورة العقل الداخلية . فإذاً على هذا يقال كلمة اولاً وصف لحركة العقل الطبيعية أى ما يلفظ فى القلب قبل ما ينطق به لفظاً (الدمشقى فى كتاب الدين المستقيم ١ ب ١٧) .

ويقال « كلمة » مجازاً على نحو رابع خلاف الثلاثة معانى سالفة الذكر — وهو ما يُفعل بالكلمة ، كقولنا هذه هى الكلمة التى قلتها لك أو التى أمر بها الملك مُشيرين بذلك إلى فعل مدلول عليه بكلمة المُخبر ولذلك قيل بأن « الكلمة هى ملاك الفهم أى رسوله » ! لأن ما يصوغه العقل فى تصوره السابق لإعلانه هو الكلمة بعينها ، فإذاً متى قيل إن الكلمة معرفة فالمراد به ما يتصوره العقل بالمعرفة .. ولذلك قال اغسطينوس .. إن الكلمة هى الحكمة أى إنها تصوُّر الحكيم الذى يجوز أن يقال له أيضا معرفة أى النظر بالعقل الذى يثبت وجوده فعلا بالصورة العقلية لأن التعقل ينسب إلى العقل بالفعل نسبة الوجود إلى الموجود بالفعل ... ، وهو لا يدل على فعل خارج عن العقل بل مستقر فيه ! وأما القول — أى النطق — فإنه يفيد بالأصالة نسبة إلى الكلمة المتصوَّرة إذ ليس هو سوى التلفظ بالكلمة ، وبهذه الواسطة يفيد نسبة إلى الشىء المعقول الذى يتبين للعاقل فى الكلمة الملفوظة .

وقد فرقت اللغة العربية نفسها بين « الكلمة » و « اللفظ » . كما فعل اليونان و العبرانيون — ولا غرابة فى ذلك — فاعتبروا الكلمة هى التعبير الشخصى الذى يحمل معه شخصية المتكلم بما فيها من مكانة ونفوذ فهى إذن ليست مجرد حروف بل إنها مرآة تظهر هذا العظيم نفسه !

● ● ●

وخلاصة ما قدمناه فى شأن المعنى اللغوى للكلمة هو : « إن الكلمة هى لسان حال صاحبها فهى التى تعلن صاحبها أو تعبر عنه » وهذا هو المعنى المتعارف عليه عن « الكلمة » فى اللغة العربية ، وهى فى نظر رجال الفلسفة « المعنى الموجود فى العقل (أى صورة ما تحتويه الكلمة) والمعبّر عنه إما فى صوت أو كتابة أو رسم : فهذه تعبر عما فى عقل المتكلم من معنى بالشكل الذى يفهمه المتكلم إليه » ...

ولذلك إعتبر فلاسفة اليونان « الكلمة » إصطلاحاً يقصد به « العقل الإلهى » المنفذ لمشيئة الله أو بالحرى المعبّر عن الله وكل مقاصده وأفكاره تعبيراً كاملاً .

ولذلك اعتبرته الفلسفة اليونانية ومن سار على نهجها « مصدر انبثاق جميع الكائنات ، ومنه وبه أبتدعت وهو يحل فى سر أسرارها ... وهو واسطة الكشف والمعرفة وأداة المشاهدة إذ هو الأصل الوجودى لها ولذلك فهو عين بقائها فى هذا الوجود الظاهر »

على أن الكلمة — بعد كل هذا — فى نظر العامة ، ومن يرفضون سبرغور الحقيقة ، هى مجرد اللفظة أ المقالة ، وفى هذا المعنى تكون مؤنثة فترد أفعالها وصفاتها وضمائرها مؤنسة أيضاً ...

● **لماذا دُعى المسيح بالكلمة :**

يؤمن علماء الشريعة المسيحية ويعتقدون مع سائر أبنائها بأن يسوع المسيح هو « كلمة الله » وإيمانهم هذا هو بعينه كما كان عند ظهور المسيحية على يد الرسل وآباء الكنيسة الأوائل ، ومن ثم فان عقيدة المسيحيين فى المسيح كالكلمة لم تتطور أو تتغير كما يزعم الزاعمون ، ولا هى إبتداع من المسيحيين المحدثين قد خالفوا به الأقدمين منهم ، وإنما هى حقيقة ثابتة لم يخرج عليها سوى الهراطقة !

أما سبب هذا الإجماع فى قبول المسيحيين لهذا الإعتقاد فى شأن « المسيح . كالكلمة » فمرجعه ماورد عنه بالحصر والتحديد فى إنجيل يوحنا ورؤياه فقد أختص البشير يوحنا بتقديم أسماء المسيح الجوهرية — لا ألقابه النسبية — وعلى رأسها وصفه « بالكلمة » وتدل الآيات الافتتاحية فى إنجيله على جلال موضوعه هذا ، فلا أنساب هنا ولا إقتباسات من العهد القديم لأنه يتجة فيما يكتبه عن « الكلمة » إلى ما هو أبعد من دائرة الزمان أى إلى الأزل السحيق الذى يستحيل إدراكه !

ومع أن هناك إضافات إرتبطت بالله فى الزمان لفعله المتعدى إلى مفعول خارج كالخلق والعناية وهذه تقال على الله فى الزمان . لكن هناك من الإ ضافات ما يلحق الفعل الذى لا يتعدى إلى مفعول خارج بل يستقر فى نفس الفاعل كالعلم والقدرة والإرادة وهذه لا تقال على الله كمنسوبة إليه فى الزمان ، لأنها ليست إضافة لاحقة لفعل الله المعدى إلى مفعول خارج : بل هى من صفاته الأزلية المستقره فى نفسه ، ومن هذا القبيل ما يفيده اسم « الكلمة » فلا يقال فى نسبة « الكلمة » لله ما يشابه الأضافة التى تقال عن الله فى الزمان عند وجود المخلوقات ... ذلك لأن الكلمة

« إسم من أسماء المسيح يضاف إلى الله بالإطلاق فيقال لهذا السبب « كلمته » و « كلمة الله » وذلك بمنزلة تحديد معين لا يمكن تجاوزه باعتباره صفة تقدم لنا وصفاً للموصوف ، بما يؤدى إلى معنى أن المسيح وحده ــ كلمة الله ــ دون أن يشاركه فى ذلك سواه !

● ● ●

أما لماذا دُعى المسيح « بكلمة الله » أو « الكلمة » فمرجع ذلك إلى أن « الكلمة » بحسب التعريف اللغوى المتقدم هى أنسب الألفاظ فى وصف حقيقة المسيح بالنسبة لله ــ كما سنعود لإيضاحها أكثر فيما بعد ــ والوحى فى حكمته المطلقة أدرى بانتقاء الألفاظ التى يتطابق معناها مع حقيقتها .

أما كون المسيح دعى « بالكلمة » لارتباط ذلك بما نادى به الفيلسوف اليهودى الأسكندرى فيلو فى القرن الأول الذى اعتبره « العقل الداخلى » لا مجرد الكلمة الخارجية أو النطق الإلهى ، على زعم أن البشير يوحنا قد نقل عنه فجوابنا عليه أنه ليس من الحكمة أن ننفى كل شىء قاله الفلاسفة ــ وإلا كانت نفس تسمية المسيح بالكلمة خطأ لأن بعض الفلاسفة قال بمثل ذلك ومجمل أقوالهم عن « الكلمة » وصفهم له بأنه جوهر مجرد خالد واحد لا يتعدد وأنه هو مصدر الحركه فى الكون والقائم على تصريف مقاديره وإذ أوفت الفلسفة على غايتها بما بشرت به عن « الكلمة » ، فأنها بذلك قد مهدت الطريق أمام العقل البشرى لقبول ما أعده الوحى عن المسيح لإعلانة عنه منذ بدء ظهور الإعلان المسيحى إذ أعتبرت « الكلمة » إعلان المتكلم وترجمان أفكاره فصارت بذلك اسماً للمسيح لكونه هو إعلان الله للناس ... ويقول أحد المفسرين فى ذلك . كما أن الكلمة تفيد المعانى والحقائق كذلك المسيح هو المرشد إلى الحقائق والأسرار الإلهية ...

الفصــــل الثـــانى
مفهوم الكلمة فى اللاهوت

« ويُدعَى اسمُهُ كلمةَ الله »

[رؤيا ١٩ : ١٣]

● **تمهيــد :**

لا ريب أن الذى أحسن كل شىء خلقه ، وجاد على كل حى بما اليه حاجته ، يكون من رأفته بخلقه أن ينقذهم من الحيرة ويخلصهم من التخبط فى أهم شئون حياتهم فيهديهم بإخراجهم من الضلال بنور الحق الذى جاء به الاعلان الإلهى شاملا وافيا ، إنما عجزت عقول البشر عن اكتناه مضمونه والوصول الى جوهره ...

ومن ثم كان الإلتزام ببيان المعتقد واجبا ، لا ينظر فيه إلى ما مال اليه المخالف أيا كان غرضه من المخالفة ، فليس الدين حاجزا دون طلب المعرفة ولا هو المانع من إحترام البرهان ، ولكن مع إلتزام الصدور نجده يأمر بالوقوف فى سلامة الاعتقاد عند الحد — أى ما يجب الاعتقاد به — وهو معترك الأفهام ومزلة الأقدام ومزدحم الكثير من الأفكار والأوهام — ولذلك فإن من تجاوز الحد فقد جهل الدين ، وجنى عليه جنايه لايغفرها له رب العالمين ! ولكننا بإزاء ذلك هل نقف من الحقيقة موقف الحياد غير حافلين ، معلقين كل شىء حتى أنفسنا ، وهل ندع الشك يسودنا فى كل شىء !؟ لا أظن أنه يمكن الذهاب إلى هذا الحد : فالطبيعة تعين العقل العاجز وكذلك الإعلان الإلهى يمنعه من أن يشط بشرط السعى فى تفهمه بعمق كافٍ وتقبله بنزاهة تامة — أما من يدّعى بأنه حائز على الحقيقة دون أن يتمكن من إظهار علامة واحدة عليها ، فإن إدعائه هذا يغدو باطلا ويضطره إلى التراجع ...

● **وصف كلمة الله على الحقيقة :**

قد أثارت عبارة « كلمة الله » تعليقات كثيرة ، وخاصة أن لفظة « الكلمة » وأصلها فى اليونانية « اللوجس LOGOS » لها فى الفلسفة وفى علوم اللاهوت معان معينة غير معناها فى القاموس ، فقد ورد عنها فى قاموس المعجم الوسيط بأنها : « اللفظة الواحدة الدالة على معنى مفرد ، وأضاف إلى ذلك بأنها حكم الله وإرادته » وقد ميزها عن « القول » بوصف أن المقصود به « الكلام » وعن « النطق » لكون معناه « التكلم بصوت » وهو ما تعنيه كلمة اخرى فى اليونانية وهى لفظة « ريما » — أما الوصف الحقيقى لكلمة الله فقد أورده البطريرك انثيمس برحمة الله فى كتاب « الهداية » المطبوع فى فينا سنة ١٧٩٢ نقتبس منه ما يأتى : —

لله الواحد الفريد كلمة وليس هو عديم الكلمة ، لأن الناطق بلا مراء هو أفضل وأكرم من العديم النطق — فالله إذاً لولا امتلك نطقا لما استطاع أن يخلق الخلائق الناطقة التى هى أفضل مما ليس له نطق لأنه كيف يناول لغيره ما ليس فيه ... ...

ومع أن فى الانسان خصالاً — أى صفات تشابه ما فى الله مثل القوة والحكمة وما مثل ذلك ، إلا أن هذه تشارك ما فى الله بالاسم فقط وليس بالحقيقة . فلا يتوهمن أحد بأن القوة والحياة والحكمة اللواتى فى الله هّن مثل ما فينا ، **كذلك الكلمة فى الله ليست مثل كلمتنا ، بل كلمة الله هى حية ذات اختيار ولها قوة أيضا لئلا يدخل ضعف فى الله الكلى القدرة وبما أن لها قوة فلها فعل أيضا** — وهى ليست مثل كلمتنا لأننا ذوى طبيعة فانية ضعيفة ، فحياتنا أيضاً سريعة الاضمحلال وقوتنا غير قائمة فى ذاتها ، كذلك كلمتنا أيضا ما يدوم بقاؤها — **ولكن الطبيعة الفائقة على الطبائع — أى طبيعة الله — فكلمتها ليس كذلك** ، ومن ثم **فإن كلمة الله قائمة بذاتها لا ابتداء لوجودها ولا انتهاء ، فليس هناك زمان لا تكون موجودة فيه ، لأن الله هو العقل الغير المبتدىء وفيه كلمته المختصة به مولودة منه على الدوام** . وهى ليست منسكبة فى الهواء مثل كلمتنا لكنها — **حية وقائمة بذاتها أى لها كيانها المتميز — إنها عقلية وبريئة من المادة ، لأنها لو افترقت من الحياة : لما كانت قائمة بذاتها** ، — أى لما كان لها وجود خاص — وإن قلنا أنها غير قائمة بذاتها فهذا القول تجديف لأن كلمة الله يراها العقل فى حياة نابعة منها — **لذلك هى ذات حياة قولا وحقيقة ، وهى حية بطبيعة الجوهر — الإلهى — لئلا يكون تركيب فى الطبيعة الإلهية الكلية البساطة** ، لأنه كلما كان لشىء ما بالمناولة أى من الخارج فأنه يستوهم تركيبا — **فالله إذا له**

كلمة تامة ليس منطلقة إلى خارج ــ أى بلا انفصال فى الذات الإلهية ــ لكنها لم تزل دائمة الوجود فى ذاته ، لأن طبيعة الله ــ غير طبيعتنا ــ فهو دائم الوجود وتام فكلمته أيضاً قائمة بنفسها وتامة ودائمة الوجود وحاوية ومالكه كل ما لوالدها ...

... ... من هذا يتضح أولاً أن الكلمة فى الله هى شىء آخر غير والدها ، بما أنه لم تكن كلمة بغير أن يكون الذى هو كلمته ، لأن من معنى الاضافة ــ أى المتضمنة فى اسم كلمة الله باضافة الكلمة إلى الله ــ يميز الذهن الكلمة والذى هو كلمته ، وثانياً قد تبين أن كلمة الله حية وثابت قيامها ، أى بطبيعة الجوهر وثالثاً أنها ذات اختيار لكونها حية ورابعاً أنها مالكة قوة لكونها ذات اختيار وخامساً أنها فاعلة لكونها ذات قوة » (الصفحتان ٩ و ١٢ من نفس المرجع) .

• • •

أما علماء التوحيد المطلق فقد قالوا : إن مصدر الكلام المسموع من الأنبياء عن الله ــ سبحانه ــ لا بد أن يكون شأنا من شئونه ، قديما بقدمه . وهذا المصدر القديم الذى يقولون به هو ما يسميه الأنجيل المقدس « بكلمة الله » وهم بهذا القول سايروا الأنجيل إلى حد بعيد يكاد يكون إعتقادا بأقنومية ذلك المصدر الأزلى القديم قدم الله نفسه كما يقولون ــ وهم يستطردون إلى القول : « ومن صفاته تعالى صفة الكلام **فما كان منه فى النفس يسمى كلاما نفسيا** فيقال قلت فى نفسى كذا وحدثتنى نفسى . وما تحصل به الإفادة والإعلام بالفعل من قول أو كتابه أو غيرها ويوجه إلى من يراد إعلامه به فيعمله **يسمى كلاما لفظياً** وهو فيما يختص بالله مصدر الوحى ، وليس فى اللغة لفظ يُعّبر به عن الكلام الموحى به يقوم مقام هذا اللفظ المستعمل فى كلام الناس ، **مع العلم بتنزيه كلام الله النفسى عن مشابهة كلام الناس كعلمه وعلمهم وهكذا** ، فقد أستعير لفظ العلم الذى يستعمله البشر فى أنفسهم للعلم الإلهى المحيط بكل شىء ، وأستعير لفظ الكلام للشأن الإلهى الذى به يوحى الله تعالى ما شاء من العلم ، ويكلم من يشاء وحيا ، **أما الكلام النفسى فإنه صورة للعلم الذاتى فى النفس كما أنه صورة للمعلوم فى النفس أيضا ، ولذلك كان كلامه تعالى لا نهاية له كعلمه ، فكلام الله صفة ذاتية له تعلق بكل ما فى علمه ويكشف ما شاء من علمه لمن شاء من خلقه ، كما أن علمه صفة ذاتية له تعلق بكل شىء تعلق إنكشاف وإدراك ، فالكلام كمال وجودى محض لو لم يكن الخالق متصفا به لكان ناقصا (سبحانه) بفقده فى الأزل**

له ، ولكان غيره من الموجودات كالانسان أكمل منه . تعالى الله عن ذلك . فالكلام هو الوصف الفاصل بين الانسان والحيوان ولا بد من نسبته بالضرورة للإله الحق ... (رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ٤١) .

ونرى من ذلك أن هناك إتفاقا بعيد المدى بين علمي اللاهوت والكلام مما ينفي الزعم بأن الله لم يكن ناطقا فى الأزل إلى أن خلق الملائكة والأنبياء ... مما يجعل رب الكمال الذاتى أنه كان فى حاجة إلى سبب وجودى خارجي يكمّل صفاته ويجعله ناطقا فعلاً ـــ لأنه بذلك يكون فى وحشة مطلقة تبلغ فى مداها إلى أنه سبحانه كان يتحدث إلى نفسه بغير نطق أو لفظ ـــ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً !!

● **الكلمة وهل هو أزلى أم محدث ؟**

ورد فى كتاب « الهدية السعدية » عن ابن العربى قوله ضمن ما يذكره عن أوصاف الله : « أنه تكلم سبحانه لا من صمت متقدم ولا سكوت متوهم **بكلام قديم أزلى كسائر صفاته** من علمه وإرادته ، **وكلم به موسى الكليم سماه التنزيل** وهو ما ظهر فى الزبور والتوراة والأنجيل **من غير حروف ولا أصوات ولا نغمات** . بل هو خالق الأصوات والحروف واللغات . فكلامه سبحانة من غير لهات ولا لسان ... » .

ولقد تطرفت **إحدى المجلات الدورية** فظنت أن الوصف المتقدم يؤدى إلى : أن الله حى متكلم ولكن لا بواسطة روح أو كلمةً ، **فكيف يكون حياً بدون روحه ومتكلما بدون كلمته !؟** وهى تصدر منه من غير أن تفارقه ، **لأن الله لم يكن قط** بلا كلمة لكونه تاماً ليس بعادم كلمة وأن كلمته لذلك ثابت قائم دائم ليس بزائل ولا بمبتدىء ولا فانٍ لأن كلمته ذو قوام حى تام ثابت أبدا فيه !! انه إله واحد ذو كلمة وروح ليس منه ولا فيه شيء مخلوق !!

وهذا هو الإستلزام الوجودى لواجب الوجود آن يكون سبحانه « ذاتٍ ونطقا وحياة » ، وإن النطق والحياة هما من خواص الذات وأزليان معها ، ولذلك جاء فى وصف الله فى الإعتقاد المسيحى « أنه حى ذو كلمة » وهذا ما درج عليه الإجماع المسيحى منذ زمن بعيد فى شرح الثالوث بالقول : **إن الله موجود بذاته ناطق بكلمته حى بروحه** » وزعم أحد المحدثين الخارجين عن المسيحية فى كتابه « **الله واحد أم ثالوث** » بإننا نحن دعاة الثالوث قد تفضلنا على الله بمنحنا إياه هذه العناصر الثلاثة وهى

الكيان والنطق والحياة ، وقد أدعى ــ بغير وجه حق ــ أننا قد قسمنا الله إلى ثلاثة اقسام وجعلنا لكل قسم منها صفة من الصفات السابق بيانها ، وقد نسب إلى المسيحيين بأنهم يقولون بالتحول أى تخلى الآب عن صفة الأبوة وصيرورته ابنا فتتخلى عنه صفه الكينونة والذات ويصبح فقط ناطقا بكلمته ، كذلك إذا تحول إلى روح قدس تخلت عنه الصفتان السابقتان وصار فقط حى بروحه ، وهكذا يتحول الله ــ على حد قوله ــ ويتغير طبقا للدور الذى يظهر به وتبعا للاسم الذى يُخلع عليه ... وهذه هى نظرية سابليوس الذى أدعى أن الأقانيم أجزاء من الطبيعة الإلهية إنفرزت من الآب وتجلت فى مظاهر أو أشكال : وقد رفضت الكنيسة هرطقته هذه ووضعته فى قائمة المبتدعين معلنة أن الله ذات موجودة لها نطق وحياة ذاتيان كيانيان غير متجزئتين من الذات وغير متبضعتين من الكيان ...!! وذلك بدون علة أو معلول لأن الله كائن واحد لا أسبقية فيه بين الذات والنطق والحياة مع ضرورة التمييز بينها ــ بحسب العلم والمنطق ــ لأن الذات بالضرورة لا بد أن تكون غير النطق والحياة ، ولا مراء فى أن الذات قائمة بنفسها ، وناطقة بخاصية النطق وحية بخاصية الروح ومن ثم فإن معنى الوجود غير معنى الحياة ؛ وهذان غير معنى النطق فإن لكل واحد من هذه الثلاث معنى غير الآخر ــ فالوجود والنطق والحياة صفات جوهرية ذاتية بها يكون الله كاملاً فى ذاته ومتضمناً فى كيانه كل ما هو ضرورى لأجل كماله وإذا لم يكن كذلك لزم أن يكون الكون أزليا لاستكمال ذات البارى . ومن ثم فإن أقوال هذا الناقد لا تعدو أن تكون مجرد تلاعب بالألفاظ وخلط لمعانى العقيدة المسيحية لتشويه حقيقتها وإخفاء معالمها الأمر الذى لا يجعل لأقواله هذه وزناً ولا إعتباراً، وما هى سوى تأويلات مستخرجة وتفاسير ملتوية ، وهذا أسلوب باطل وخطير للغاية على كل من يرتأيه ...!!

وشتان بين ما ذهب إليه هذا الناقد وما يقرره صاحب « رسالة التوحيد » إذ أنه يستطرد ــ بعد ما سبق لنا إقتباسه إلى القول : « فلو خلق الله تعالى فى نفس ملاك أو نبى علما بما أراد إعلامه به لم يكن صادراً عن **كلامه النفسى ومرآة له لما صح أن يسمى هذا العلم كلاما لله تعالى ... وأما عند الإيحاء بكلامه تعالى فإنه يأخذ صورة أخرى هى الكلام اللفظى ... والمعنى للكل الذى هو العلم واحد لا يتغير بإختلاف صوره فهو العالم به أولاً أى متمثل فى نفسه ثم ينطق به ثم تتناقله عنه الناس بألسنتهم وخطوطهم مع الزمن ، وكلهم يعزونه إليه وأنه من كلامه ... فكلام الله الذى أوحاه إذاً صادرا عن كلامه النفسى ثم حدث الوحى به وجاءت تلاوته وكتابته**

وطبعه قرنا بعد قرن فيما بعد ، وهذا لا ينافى كونه هو كلامه ، وأنه قديم بقدمه ومن ثم لا يقال عن كلامه الموحى به مخلوق وحادث بشبهة حدوث إيحائه وتنزيله وتلاوته ، لأن هذا يحمل على إنكار صفة الكلام عن الله جملة وتفصيلاً ، مع ما فى ذلك من شبهة إستلزام إثبات صفات لله لتعدد القدماء ، والإنكار فى ذلك يعتبر غلواً فى التنزيه ينتهى إلى جعله عز وجل ماهية خيالية سلبية فاقدة لكل صفات الوجود ، ويشابه ذلك امتناع قيام الحادث بالقديم . وإنما التنزيه الصحيح أنه تعالى موجود متصف بجميع صفات الكمال الوجودية ومنها الكلام والتكليم ، بغير تعطيل ولا تمثيل ، الأمر الذى أعتبر معه القول بخلق الكلمة كضلالة وقد يكون ذلك رد فعل لما قالته المسيحية عن الكلمة على أن هناك من قد إعتبر القول بأن الكلمة غير مخلوق نقض للوحدة الإلهية ومن ثم فقد حدث إختلاف حول الكلمة أهى صفة أزلية من كل وجه — وهل هى أزلية من ناحية المعنى فقط أما اللفظ أيضاً ... على أن هناك من وقف على الحياد فقالوا نحن لا نعرف ...

• • •

وقد أعتبر المعتزلة مثل هذا الموقف المتقدم مشكلة فأنكروا جميعهم أن كلام الله قديم ، وقدموا أسبابا عديدة لذلك أوردها الشهرستانى فى كتابه نهاية الأقدام ص ٣٠٩ — ومن ثم لم تُدخل المعتزلة كلام الله فى صفات الذات التى هى مجرد إعتبارات ذهنية بلا وجود حقيقى فى نظرهم ...

فلما قالت المعتزلة إن كلام الله حادث بحثوا عن محل لهذا الكلام خارج الله إذ أن الله — وهو الكمال المطلق القديم — لا حادث فيه ولا يمكنه أن يكون محلاً للحادث . وقال أبو الهذيل : إن الكلام مخلوق محدث يحدثه الله وقت الحاجة وهو عرض وإنه يوجد فى أماكن كثيرة فى وقت واحد ، فهو يوجد مع التلاوة ، ومع الكتابة ومع الحفظ فى أماكنها وهو لذلك لا يصح أن يكون قائما به سبحانه (الأشعرى . مقالات ص ١٩٢) .

وأما الأشعرى فقد ميز الكلام الحرفى بالمعنى المادى والكلام بمعنى الفكرة : فالكلام قديم بالمعنى الثانى إذ أنه علم الله : وهكذا يكون للكلام القديم أعنى علم الله مكان وهذا المكان هو الله ذاته ، والثانى وهو مكان الكلام المعبر عنه بلغة الانسان

وهذا المكان هو الانسان ذاته الذى أوحى اليه بهذا الكلام ونطق به . كما وأن كل من يكرر هذا الكلام يصبح مكاناً له ومع ذلك فقد جعل **الكلام والذات** الإلهية شيئا واحدا بحسب المعنى السابق

وجدير بالذكر هنا أن الجعد بن درهم كان أول من كان ينفي قدم الكلمة وتميزها عن الله : وما كان يمكنه أن يأخذ على النصارى هذا الأعتقاد الأساسى عندهم ويقول هو فى نفس الوقت بمذهب مشابه لمذهبهم ـــ الذى يرونه ـــ مع إختلاف فى الاسم فقط . **وقوله هذا جاء رداً على ركن من أركان المسيحية وهو الأعتقاد بأن المسيح هو كلمة الله الازلية** : فأراد الجعد إنكار الوهية الكلمة اعنى المسيح بما ذهب إليه . فكان جل هم المعتزله رد قول النصارى بالأقنوم الثانى وعدم إستبداله بشيء آخر مماثل له : ومن هنا يتضح مجهود المعتزله فى الدفاع عن قولهم فى خلق كلام الله منعا من أن يؤدى الكلام بقدم الكلمة إلى الأعتقاد بأن المسيح كلمة الله الأزلية ... (ص ٢٦ من كتاب فلسفة المعتزلة للدكتور البير نصرى)

● ● ●

وأما فى المسيحية فإن التفرقة بين الكلمة الأقنوم وكلمة الوحى أمر ظاهر تماما يمنع الخلط ما بين الكلمتين ويوجب التمييز بينهما ، وفى هذا الصدد قال القديس يوحنا فم الذهب :

« **ولاتتوهم إذا سمعت كلمة الله** أنها كلمة على بسيط ذاتها ، لأن الكلام الذى نطق به الأنبياء والملائكة هو من كلام الله ، لكن لاكلمة واحدة من تلك الكلمات إله ـــ **إلا أن كلمة الله الحقيقى ـــ المسيح ـــ هو جوهر إلهى حاصل فى اقنوم بارز من أبيه خلوا من إنقسام عارض .** »

وأما من جهة الكتاب المقدس ـــ وهو كلمة الله المكتوبة ـــ أى كلامه الصادر بالوحى من ذلك الأقنوم نفسه ، فإننا وإن كان نؤمن بصدقه وإستحقاقه لكل قبول ونحترمه عاملين بإرشاداته ووصاياه ، لأنه قد جاء إعلانا إلهيا عن مجد الله الفائق الغير محدود ولا المتناهى ، إلا أنه لا يحوى ذلك المجد ولا يحصره نهائيا ، وذلك على خلاف يسوع المسيح « كلمة الله » الذى قد تجلى فيه مجد الله الذاتى مطلقا ولا نهائيا .

ومن ثم فإننا لا نقر القول بأن الكتب المقدسه هى ذات المسيح لأن ذلك تأليه لها يجعلها واجبة الوجود ينبغى أن يقدم لها العبادة والسجود ــ وهذا مما لا يجوز مطلقا ــ ومع ذلك فإنه مما يؤسف له حقاً أن هناك من يصورون المسيح فيها متجسداً ، ويكون هذا التجسد طبعا قد تكرر مراراً فى أزمنة تلك الأسفار المختلفة من قبل ومن بعد التجسد الحقيقى من مريم العذراء ، وهذا واضح البطلان ... (المختار الخمسينى ١ لسنة ٦١)

ومن غريب القول هنا ما إبتدعه « شهود يهوه » فى شأن المسيح « الكلمة » بأنه أول ما خلق الله ودعاه باسم « لوغوس » وهى اللفظة اليونانية للكلمة ــ وجعلوا معنى اللوغس النائب أو الممثل أو المتكلم عن الخالق العظيم ــ على حد قولهم ــ معتبرين أن مركزه مركز الموظف المنفذ الرئيسى عند يهوه ، لأنه بعد ما خلق يهوه « الكلمة » مباشرة فى نظرهم استخدمه كوكيله أو « مهندسه » فى خلق كل شىء آخر ، جاعلين إياه أكبر الموظفين عند الله (المرجع فى كتبهم المعروفة)

ومن عجب أن شهود يهوه مع تسليمهم بأن المسيح هو خالق الكل ، فإنهم يقولون أن الله خلقه أولاً ثم أمره أن يخلق هذه الخليقة وأن يتولى أمر حفظها ودوام وجودها بكلمة قدرته كموظف يقوم بوظيفته ــ وهذه هى نظرية « المخلوق الأول » الذى زعمت بوجوده الفلسفة اليهودية وجعلته الوسيط الأعظم لكل ما حدث من بدء الخليقة وما يحدث إلى المنتهى بواسطته ــ **وفى ذلك منتهى الغرابة إذ كيف يكون المخلوق خالقا ؟ وكيف يخلق هذا المخلوق نفسه أيضاً لأن الوحي يقول عنه : « به كان كل شىء وبغيره لم يكن شىء مما كان »** (يوحنا ١ : ٣) **؟ فأى عقل فى الوجود يقبل ياترى هذه النتيجة الغير منطقية لضلال شهود يهوه الشنيع المستمد من تلك الفلسفة الباطلة سالفة الذكر ؟ فضلا عن أن القول السالف الذى أوردناه من إنجيل يوحنا ينفى بتاتاً أن يكون الكلمة أحد الخلائق !**

وإذن فالكلمة فى الله لا يمكن أن يكون إلا أقنوما له ذات الله : وهو الأقنوم الذى دعا الكائنات إلى الوجود لكونه كلمة الله أى اللاهوت متكلما ! فالكلمة هنا إذاً ليست حروف مجردة بل شخصية إلهية تمثلت فيها قدرة الله الآمرة والناهية فى الكون ! ولذلك نجده يقوم بالخلق : وحيث أن صفة الخلق وعمل الخلق خاصتان إلهيتان لا يمكن أن يشارك الله فيهما آخر ، فهو الخالق وحده ــ إذن من يكون المسيح هذا ؟ وهل هو

إله آخر خالق معه ؟ ـــ وهذا هو الشرك بعينه ، (الذى يُتهم به المسيحيون بغير إدراك لحقيقة أعتقادهم) أم هو مجرد انسان ؟ وحينئذ كيف يكون المخلوق خالقا ؟ ثم هل خلق هذا المخلوق نفسه أيضا كماسبق التساؤل ؟ ولماذا أختص الله المسيح بمشاركته فى هذه الصفة الخاصة به وحده !؟ وما الداعى الذى يجعل الله يفوض المسيح فى عمل الخلق !؟ لا جواب على كل ذلك لدى شهود يهوه وأمثالهم من المبتدعين ، وأما نحن المسيحيين فنقول بأن المسيح قد تفرد بأن دُعى « كلمة الله » لأنه هو الكلمة الذاتية منذ الأزل قبل خلق العالمين !! لأنه كيف يكون مخلوقا من هو قبل المخلوقات ، وكيف ينزل منزلة المخلوقين من كان حاضراً مع الخالق الأزلى وهو ليس إلهاً غيره لأنه واحدا معه وفيه !!

الفصـــل الثــالث

الوساطة عن طريق الكلمة

« هذا كان فى البدء عند الله . كل شىء
به كان وبغيره لم يكن شىءٌ مما كان »
[يوحنا ١ : ٢و٣]

● **بين اليهودية المسيحية :**

إن مدار الدين اليهودى هو الإعلان عن وجود إله واحد وهذا لا يفتأ حقاً إلى الأبد ، ولكنه لم يكن كافيا للإتيان بالبشر إلى الله ــ أما الدين المسيحي فمع إقراره بنفس هذا الإله الواحد إلا أنه يعرض أيضا وجود الوسيط الواحد بين الله والناس ــ الانسان يسوع المسيح ــ (اتى ٢ : ٥) الذى لا وسيط سواه على الإطلاق ، وهذا هو الحق الجليل الهام الذى تنفرد به المسيحية الحقيقية !!

لقد كان على الديانة اليهودية التى نزهت الله تنزيها مطلقا ، أن تجد حلا لطريقة إتصاله تعالى بالعالم فوجدته فى فكرة الوساطة التى شرحها فيلون بقوله : « **إن الله لا يتصل بالعالم ولا يعنى به مباشرة بل بواسطة وسطاء ــ فالوسيط الأول هو اللوغس أى الكلمة ، بهذا الوسيط خلق الله العالم ويعنى به وبواسطته أيضا أمكن الأتصال بالله ، ... أما الوسيط الأخير فهو آدم الذى ولد منه البشر جميعا .** »

أما أفلوطين فقد تعدى هذه الحدود إلى « نظرية الفيض الإلهى » التى نادى بها ، ونقلها عنه ابن سيناء وهى تقول بأنه : لما كان ما بين الله والمادة وبين كماله ونقصها امراً مستحيلاً لذلك كان لا بد له تعالى من خلق ما أطلقوا عليه « العقول العشرة » ــ وهى محور فكرة الوساطه لديه ــ ودعا أولها « العقل الأول » وسماه « اللوغس » أو « الكلمة » ! ومرجع هذه النظرية ــ التى أعلنها افلوطين عند ظهوره بالاسكندرية

ـ محاولته التوفيق بين اليهودية ووسيطها موسى والمسيحية ووسيطها المسيح وذلك بايجاد وسطاء كثيرين بجانب المسيح ، مما فتح المجال لإختراع الوسطاء ! كان فخر اليهودية أن الله محتجب فى قلب السموات فكيف يكون هو مبدع الأكوان ؟ ولذلك أفترضت هذه النظرية ـ لأجل التقريب بين اليهودية والمسيحية ـ وجود فيض فى الله ظهر على شكل حلقات كل حلقة منها أقل من السابقة حتى تنتهى بالعالم المادى الذى لا وجود ولا أثر للاهوت فيه ! وأعتبر افلوطين هؤلاء الوسطاء ملائكة (مما أوصل ـ حتى فى العصر الرسولى نفسه ـ إلى مبدأ عبادة الملائكة وإعتبارهم رسل الله للناس وكهنة عن الناس لديه تعالى للمصالحة) ... وواضح أن حلقة الاتصال مع الله لن تتم بهذه الحلقات لأن الله سيظل لا يُدنى منه ويبقى الانسان بعيداً ، لأن الحلقة مفقودة بين الملائكة والله وبينهم وبين البشر ، فما أبعد ذلك عن الفكر المسيحى الأصيل بأن الوساطة قد تمت بالكلمة لا بهذا الفيض المزعوم لسد الثغرة بين الله وجميع الكائنات ... وذلك لأن التنزيه البحت يستحيل أن يشبع رغائب البشر الروحية لأنه يباعد بين الله والكائنات ويمنع رؤيته تماما ، فهو اعتقاد رسمى يحوى فقط جانبا من الحق لا يكفى لتحقيق الإعلان الكامل الذى يبين كيفية الإتصال بين الله والعالم مع ما يتبع ذلك من نتائج تتمركز فى العلاقات الحقيقية الأدبية والروابط الروحية السامية التى بمقتضاها لا يكون الله إلها بعيد المنال ، منفردا فى جلاله لا يقربه أحد من خلائقه :

وهكذا إجمعت الأفكار الدينية والأبحاث الفلسفية على ضرورة وجود وسيط وتعثرت فى بحثها عنه ، لأن معضلة إتصال الله الغير محدود بمخلوقاته المحدودة قد أجهدت عقول الفلاسفة والمفكرين فى حلها وأسفر إجتهادهم عن خيبة أمل كشف عنها صاحب كتاب ميزان الموازين بقوله : « **كل مدرك لابد له من وسيلة صلة يتذرع بها الى الإدراك ، ولما كان الله غير محدود ، وخلائقه محدودة ، إنعدمت كل علاقة وإنقطعت كل صلة بين الطرفين ، وعليه لم تكن ثمة وسيلة للانسان أن يدرك الله ولا أى مخلوق كائنا أيا كان يستطيع أن يدرك الخالق عز وجل !!** »

ومن المسلّم به هنا أنه لا يستطيع كتاب ولا نبى أن يعلن الله إعلانا تاما : فالأنبياء وكتب الوحى قد تعلمنا أموراً كثيرة عن الله فتعلن لنا أوامره ومشيئته وصفاته ، ولكنها لا تستطيع أن توصلنا إلى معرفة الله معرفة ذاتية وذلك أولاً : **لجهل المرسلين بمعرفته الذاتية سبحانه وهو الكائن المطلق غير المنظور الذى لم يره أحد ولا يعرفه عارف**

قط مما يحتم ظهور هذا الوسيط كحلقة إتصال يستطيع البشر بواسطتها ان يعرفوا الله وبذلك يتم الوصول إليه (انظر يوحنا ٨ : ١٩ و ١٤ : ٦ و ٧) وثانياً : لعدم كفاية الوحى ليكون حلقة الإتصال بين البشر والذات الإلهية ، ومن ثم فإن القول بأن الكتاب المقدس يحتوى على عقل الله قول خاطىء لأن هذا التعبير يعنى التحديد والحصر والأحاطة والشمول فى حين أن عقل الله تعالى لا يُحدّ ولا يُحصر ولا يُحاط به ولا يُشتمل عليه . ومن ثم أرسل الله أقنوم الكلمة الأزلى ـــ بغير إنتقال ولا إمتداد ولا إنفصال ـــ ليخبرنا عنه تعالى ويربطنا به :

هذا هو الوسيط بين الله والناس الذى أعلنت المسيحية عن وجوده وهو الحل الوحيد لمعضلة الدهور ـــ وهى وجود الله خارج العالم وفى نفس الوقت داخله ـــ وإنشاء العلاقة والصلة بينه تعالى وبين خلائقه فى مواجهة التنزيه البالغ الذى يعزل بطبيعته الخالق عن المخلوق ، فكيف يسمع الدعاء ويستجيب النداء عندئذ ، باعتبار أن ذلك أصل من أصول العلاقة بين الانسان وخالقه وهى التى يعتبر عدم وجودها منافيا لطبيعة ومعنى كل دين بالإطلاق !!

وهكذا أمسكت المسيحية بكل قوة بعقيدة « وساطة الكلمة الإلهى » التى تجمع بين تنزيه اللاهوت وتجليه مما زاد معه التعجب كلما تأمل البشر فى جلال هذا الوسيط الذى أنفردت وتميزت المسيحية بأعلانه ... الوسيط الذى لم يختزل المسافة الحتمية بيننا وبين الله فقط ولكنه ألغاها ... !!

● مكنونات الكلمة = الحكمة والقوة :

ماذا بعد أن تحققنا بأن الضرورة أمام العقل المخلوق تحتم وجود هذا الوسيط وذلك لكى يحمل نور المجد الدائم ويقوى العقل على رؤية الله متمثلة فى صورة هذا الوسيط التى يُظهر الله عن طريقها ذاته غير المرئية !؟ إننا نقرر هنا كيف اتسع إصطلاح « الكلمة » الى شمول معنى « العقل » و « الحكمة » و «القوة » ـــ فإن الكلمة «لوغوس » اليونانية يراد بها العقل المنفذ لمشيئة الله والقائم بتدبير العالم ـــ أما اللفظ المترجم بالكلمة للدلالة على القول العادى فهو « لكسيز » وهو مؤنث ... واذا رجعنا إلى اللغة العبرية أيضا وجدنا بها لفظين مختلفين ترجما إلى اللغة العربية « الكلمة » وهما « إمرا » و « دابار » والأول مؤنث ومعناه الحرفى « أمر » ويراد به القول العادى ، أما

الثانى فمذكر ومعناه الحرفى « تدبير » ويراد به العلم أو القوة الفعالة (قاموس العهد الجديد لدكتور كتل الألمانى جـ ٤ ص ٩٣) أى « أقنوم الكلمة » وهو الذى دعاه سليمان « الحكمة » فى أمثال (٨ : ٣٢ ــ ٣٦) أما كونه « العقل » فهو المقصود فى القول : « لتدبير ملء الازمنة ليجمع كل شىء فى المسيح ما فى السموات وما على الأرض فى ذاك » وأيضا : « حسب قصد الدهور الذى صنعه فى المسيح يسوع ربنا » (افسس ١ : ١٠ و ٣ : ١١) مما يعنى أن فى المسيح كلمة الله موجودة كلمات وأحسبة الدهور ومقاديرها ... لأن هذه الكلمة المصوِّرة هى إنتاج وتصوير العقل الإلهى الذى ليس هناك من يخبر بمحتوياته ! ولذلك جاء وصف المسيح أيضا بأنه : « قوة الله وحكمة الله » (١ كو ١ : ٢٤) وهذا يدفعنا إلى استجلاء مكنونات الكلمة هذه للوقوف على معانيها الحقيقية ومراميها الصحيحة :

المسيح فى عقيدة المسيحيين هو « العقل الإلهى » وهذا يجعله لا مجرد نبى أو رسول ، ولا هو كمصدر الوحى فقط ، وليس هو رئيسا على من ذكرناهم ولا من الملائكة المقربين حتى لو كان الوجيه بينهم ، إنه أسمى من كل ذلك بما لا يقاس ويستحيل على سواه الوصول اليه ــ فإن هذا اللقب « كلمة الله » فى معناه الكامل يرفع المسيح فوق المخلوقين الى صلة ذاتية خاصة ، هى علاقة فريدة حميمة بينه وبين الله وبالنسبة لنا هى سر لا يدرك (كما قال الكاردينال ترانكون فى مؤتمر الحوار بقرطبة المنعقد فى يونيو ٧٧) و « الكلمة » فى الأصل العبرى ــ كما سلفت الإشارة ــ فسرها الربانيون بأنها « فكر الله آخذاً مجراه » ، وهى تمثل « أقنوما فى اللاهوت » لا كأنه موجود مغاير للوجود الإلهى ، لأن كمال الوجود الإلهى يشمل فى نفسه كلمته الصادرة منه فى وحدة وجوده (الخلاصة اللاهوتية للقديس توما الاكوينى مجلد ١ ص ٤٢٠ و ٤٢٥) وقد سبق أن قال الفلاسفة أمثال أرسطو أن : « الله عاقل ... وعقل ومعقول ... وهو ذات واحدة ، ومن البين أن معنى كونه عقلا لا يتضمن معنى كونه عاقلاً أو معقولاً فقد حصل له ثلاث صفات مختلفات بدون إفتراق حتى أنه لا يمكن الفصل بينها أى أنه إذا وجد واحد من المعنيين وجدا معه أيضاً تلقائيا ولا محالة ــ أما كونه عاقلاً فلأنه المصوِّر الجميع بعلمه الكاشف (وهو الآب) وعقلاً الذى فيه هذه الصور السابقة لكافة الموجودات هو الكلمة ومعقولاً أى إدراك الذى يفحص كل شىء حتى أعماق الله (أى يدرك الأشياء العميقة فيه تعالى ويقوم بإعلانها) وهذا هو الروح القدس . ويقال « كلمة » فى الله حقيقة لما يدل على تصوُّر « العقل » كقول أغسطينوس فى كتابه

« الثالوث » الذى يستطرد بعده إلى القول : « على أن من حقيقة صورة العقل أن تكون الكلمة صادرة عن آخر أى عن معرفة المتصوِّر ، وهذا هو أساس الأقنومية التى تتمايز بالأصل لا باعتبار الذات بل باعتبار الأقنوم فقط ، وبذلك تصدر الكلمة صدورا داخليا بحيث تبقى مستقرة فى الذات وهى فى صدورها تدل على نشاط « العقل الإلهى » فى جمعه لكافة صور الكائنات ... وهويستطرد إلى القول : « وعلى هذا النحو يجوز أن ندرك كون « الكلمة » عند الله إنما هى النظر بالتفكير لتصوير ما أمامها باعتبارها « العقل الإلهى » الذى يعتبر بطبيعته متوصلا ألى صورة الحقيقة ، فالتفكير لديه لا يقوم فى البحث عن الحقيقة كما عندنا لأنه يراها بكمالها ، ولكن من وجه آخر كما أن عقل الانسان يقول بالكلمة ما يتصوره بتعقله وذلك لكون عقلنا إنما يحصل بالفعل على صورة الشيء المتعقل ، كذلك « الكلمة » فى الله فأنها تفيد إتحادا بالجوهر من كل وجه لأقنوم موجود حقيقة فى الله لأن العقل والمعقول متحدان فى جوهر الله الواحد !!

• • •

يتضح لنا مما سبق أن « الكلمة » إسم خاص يدل على العقل الإلهى الذى يتعقل جميع الأشياء ــ بما فيها الذات الإلهية نفسها ــ بأن يدركها ويُصوِّرها ــ ، وهذا يختلف كلية عما نحن عليه : إذ أنه من جهتنا نحن نجد أن الوجود والتعقل ليسا واحدا بعينه فوجودنا كالمرتسم فى عقولنا ليس من طبيعتنا ، وأما وجود الله فهو عين تعقُّله ! وإذاً فإن كلمة الله ليست عرضا ما فيه أو أثر ما له بل ترجع الى طبيعته ، ولذا يجب أن تكون شيئا قائما بنفسه لأن كل ما فى طبيعة الله قائم بنفسه ــ ولذا قال الدمشقى فى كتاب الدين المستقيم ١ ب ١٨ أف : « كلمة الله جوهرية وموجودة فى أقنوم ، واما سائر كلماتنا فهى قوى الطبيعة . » وهو يستطرد إلى القول بأنه :

« نظراً لأن المخلوقات لا تُعرف من الله بعلم مستفاد من المخلوقات بل بذاته ، فإذاً ليس يلزم كون « الكلمة » ــ وهى مدلول هذا العلم المطلق الشامل ــ صادرة عن المخلوقات وإن كانت موضحة لها ... وهكذا نجد اسم « الكلمة » موضوعاً بالاصالة للدلالة على إضافة إلى القائل (الله) ثم الى المخلوقات من حيث أن الله بتعقله ذاته يعقل أيضا كل خليقة لأن الكلمة المتّصورة فى العقل الإلهى ممثلة لكل ما يُعقل بالفعل ــ ولما كان الله يعقل بفعل واحد نفسه وجميع الأشياء كانت كلمته الواحدة موضحة لا لذاته فقط بل للمخلوقات أيضا ، فذاك الذى هو الكلمة أى العقل الالهى يعرف الآب

ويعلنه (مت ١١ : ٢٧) كما أنه يعلم كل شيء (يو ٢١ : ١٧) وبهذا نصل إلى معرفة كيف أن « الكلمة » يوصف « حكمة الله » لاحتوائه على الحكمة الإلهية المطلقة ـــ وهي العلم الإلهي الشامل الذي يرى الكائنات مسبقا ويصوِّر أحوالها وأطوارها ـــ بإعتبار أن « كل شيء مكشوف وعريان لعينيه إذ ليست خليقة غير ظاهرة قدامه » (عب ٤ : ١٣) ، فهو ينظر ويعلم كل شيء عن خليقته في كل زمان ومكان ، لا الأشياء الظاهرة فقط بل والخفية أيضا في كل مكان دون أن يقيده زمان ، وعن ذلك يقول توما الأكويني : « إن الله عالم لأن العلم كمال ، ولله الكمال المطلق ، ولذلك فإنه يقبل الصور المعنوية للأشياء قبولاً تاماً . »

والعلم الإلهي في حقيقته هو : « سبق الرؤية أو المشاهدة » وذلك لحضور الذات الإلهية حضورا تاما ومشاهدتها لكل مايقع بحالة مطلقة فريدة ، دُعي الله بسببها بإسم « المصوِّر » وقد ورد هذا الاسم عنه ضمن اسمائه الأُخرى التي تضمنها الكتاب المقدس وهو يعني أنه سبحانه مصوِّر الكائنات خارجها وداخلها ـــ إذ هو مصوِّر الجميع ـــ ، وهذا يعني أن لديه صورة حاضرة إستمرارية لسائر خلائقه جامعة لكل ما هي عليه وما يطرأ عليها منذ لحظة وجودها وما سيكون لها من مصائر في الزمن والأبد على حد سواء » .

وقد استطعنا ان نرى من أقوال رجال الفلسفة وعلماء الأديان كيف أن الكلمة « هو » « العقل الإلهي » الظاهر أثره في الوجود وهو موجود حقيقي ، ليس هو الله بالاطلاق الكلي ولكنه أيضا في نفس الوقت ليس شيئا غير الله ذلك أنه اقنوم في الذات الآلهية فهو من نفس طبيعتها وجوهرها ، ومن ثم فإن له كل خواص الجوهر الإلهي من مجد وقدرة وعمل ... الخ ، وإنه لذلك في الله والله فيه أزلي : فهو من جوهر الله ومعه وفيه !!

إنه « العقل الالهي » الذي هو عين الذات لا غيرها إذ أن به يعقل الحق نفسه ، كما أن إجمال كل الخلق فيه ، إنه سر كل موجود وتفصيله وذلك لأنه « العلم الإلهي » ـــ وهو كمال محض ـــ لايقبل التعريف أو التحديد ، وتعزى إليه قوة الخلق والتدبير !

● ● ●

وبديهي أن الوحي هنا هو المرجع الوحيد الذي تطمئن اليه القلوب فهو الذي كشف

لنا حقيقة « واجب الوجود » لأنه أعطانا هذا الإعلان المبارك الصريح عن « الكلمة السرمدى » فى مواضع شتى من كتابه العزيز على رأسها فاتحة أنجيل يوحنا ، ولذلك فإننا نؤمن أن يسوع المسيح الذى هو كلمة الله الأزلى ، هو بذلك الحكمة الذى كان به كل شىء مما كان ، وفيه يقوم الكل : أنه كلمة الله بالجوهر الإلهى ، وهو أيضا واجب الوجود لأنه فى واجب الوجود !!

ومع أن الخلق ينسب للآب باعتبار ما له من مشيئة فى ذلك ، إلا أن الخلق بالفعل ينسب الى الكلمة بوصفه قوة الله وحكمة الله أى فكره وبصيرته التى بها رأى صورة الوجود ، فهو الذى قام بعملية الخلق لكونه الوسيط بين الله والمخلوقات ، وأما الروح القدس فهو « القدرة » التى أخرجت الصورة إلى الفعل ، لأنه هو الذى بث الحياة فى المادة ، وجعلها تنقاد إلى العقل الذى هو الكلمة !

وهذا كله لا يفيد تعدد الآلهة لوحدانية الجوهر الإلهى غير المنقسم فهو بملئه وكمالاته — لكل من الآب والكلمة والروح — ممايستقيم معه الإيمان بالوهية الثلاثة مع انتفاء الشرك والخروج على التوحيد !

وكما وصف الكلمة « بالحكمة » كذلك قيل عنه أنه « قوة الله » لأن عمل الخلق — المختص بالله وحده — كفعل للقوة الإلهية منسوب إليه ، لأن الله لم يخلق شيئا بغير كلمته — باعتباره العقل الإلهى الذى كما رأينا فيه « الحكمة » نرى فيه « القوة » أيضا — حكمة التدبير وقوة التنفيذ : وعند بعض علماء التوحيد أن « كلمة الله » هى العليا ،، وأن تركيب الكاف واللام والميم (وهى الحروف الأساسية للكلمة) تفيد القوة والشدة (ك . الدين والشهادة ص ١٣٥) — وهكذا تظهر « كلمة الله » بأنها العليا التى تعلو فوق الجميع ، وهذا ما أعلنه يوحنا المعمدان عن المسيح بقوله : « الذى يأتى من فوق ... من السماء ... هو فوق الجميع » (يو ٣ : ٣١) وتبعا لذلك نجده الأقنوم الذى ظهرت فيه قوة الكلمة الأمرية ، لأن إرادة الله فى الخلق تنفذت بتأثيرها « حيث كلمة الملك هناك سلطان » (جا ٨ : ٤) ومن ثم فإنه يحوى قوة تنفيذ مقاصد الله وأغراضه وهيهات أن تكون هذه دخيلة أو محدثة فى الله !! ولذلك فإننا قد وجدنا فى رسالتى كولوسى والعبرانيين كما فى فاتحة إنجيل يوحنا : « أن به قد خلقت الخليقة » (أى بالكلمة) ، وهذا لا يعنى سوى انه « الخالق » الذى يتميز عن جميع الخلائق ، وذلك ينفى بتاتا أن يكون الكلمة أحد الخلائق اذ هو موجد جميع الكائنات وحافظها

وحاملها وذلك فى ضوء الشواهد الكتابية الواردة فى نصوص تلك المواضع ، اذ انه لكونه الكلمة ـــ أى الأقنوم الناطق فى اللاهوت » هو الذى نطق بأوامر تكوين الخليقة الواردة فى فاتحة سفر التكوين فأبرزها بذلك من العدم ، الأمر الذى بدونه ينتفى كل ما جاء فى الكتاب عن نسبة الخلق المباشر له ـــ وهذا ما نجابه به ضلالة شهود يهوه من أن الله (يهوه) خلقه اولاً ثم أمره أن يخلق هذه الخليقة وان يتولى أمر حفظها ودوام وجودها كموظف يقوم بوظيفته هذه ... مع تسليمهم الضمنى بانه « خالق الكل » ـــ ومع أننا نتساءل كيف يكون الخالق مخلوقاً ، إلا أن الأدهى من ذلك أنه بمقتضى نظريتهم هذه يكون هناك خالقان : الكلمة (لوغس) خالق العالم وخالقنا و (يهوه) خالق خالقنا ـــ ولسنا ندرى لأيهما نقدم إذاً العبادة والسجود !؟ لأن معتقدهم الفاسد هذا يؤدى الى تعدد الآلهة كما انه يقود الى عبادة المخلوق ، وكليهما منهى عنه فى الكتاب ، فضلا عن آن الخالق يستحيل ان يكون مخلوقا لأن المخلوق محدود ، والخليقة فيما يُرى وما لأيرى تتطلب فى خالقها ان يكون غير محدود فى عمله وحكمته وقدرته اذ هى الشاهد لمن خلقها بذلك.(رومية ١ : ١٩ و ٢٠)

● ● ●

وعلينا الآن فى نهاية المطاف أن نقدم هذا السؤال رداً على هرطقة المبتدعين وهو : اذا اعتبرنا الكلمة (لوغس) إلها مخلوقا منفصلا ومستقلا عن الله (يهوه) الذى خلقه وفوض اليه أن يخلق هذه الخليقة ، فهل تصميم الخلق كان وقت خلقها فى عقل يهوه أم فى عقل لوغس ؟ فان قيل انه كان فى عقل لوغس ، فان فضل ايجادها وتنظيمها وضبطها فى سيرها يرجع الى حكمة وقدرة (لوغس) وهذا يدل على أن للوغس حكمه وقدرة غير محدودتين هو بهما مساو (ليهوه) ، وان قيل انه كان فى عقل يهوه ومنه انتقل الى عقل لوغس نقول أنه ما كانت هناك ضرورة لوضعها على عاتق لوغس لإن ابرازها من العدم بواسطة يهوه بكلمة قدرته أيسر من ذلك ، إذ ما الداعى أن يقيم يهوه كائنا مخلوقا يؤلهه ويكلفه بخلق العالمين ـــ أليس الأقرب من هذا وذاك القول بأن (لوغس) الخالق هو نفسه (يهوه) لوحدانية الجوهر الذى للذات الإلهية بين الله وكلمته وروحه ، كما سبق الشرح والبيان .

● ● ●

ومن ثم فإن كل ما يحدث وهوسر رهيب فى الكون وفى المؤمنين بالذات إنما هو

من فعل « كلمته الذاتية » هذه وهى المسيح متكلم الله فيه وشتان بينه وبين الكلام الذى تكلم به بوحيه والذى تضمنه كلمة الحق وكلمة الحياة وكلمة الخلاص. وكلمة النعمة ... الخ فإن هذه كلها شواهد لفاعلية الكلمة المكتوبة ولكنها مع ذلك ليست كلمة الله الذاتية المحيية والتى لن تفقد قط ألوهيتها ...

● ● ●

هذه هى الحقيقة الساطعة التى نؤمن بها دون عنت او اشكال أما المعترضون فيبدو أنه قد فاتهم ادراكها والارجح انهم رفضوا قبولها بارادتهم ، ومن ثم فانه يحلو لهم الاعتراض على « لاهوت الكلمة » بما يرونه من أحوال ناسوته ، زاعمين أن النصوص التى تدل على انه انسان حقيقى تنفى كونه إلهاً ، متجاهلين أن المسيح من حيث كونه « الإله المتأنس » يصح عليه اقوال متضادة حسب الظاهر منها ما يدل على أنه إله وهذه لا تنفى كونه إنسانا أيضاً ، ومنها ما يدل على انه انسان وهى لا تنفى كذلك انه اله !!

واننا لا نتصور قط أن الله الغيور على مجده يعطيه لآخر ويسمح لأى من كان أن يقوم بهذه الاعمال الخارقة إلا اذا كانت كلمته هى ذاته لانها أقنوم فى جوهر لاهوته !!

قال البابا كيرلس الكبير البطريرك الرابع والعشرين : « من تجاسر وقال إن المسيح الذى يستعمل السلطان الإلهى هو مجرد انسان ساذج ، ولم يُحسن أن يقول أنه إله بالحقيقة رغم اشتراكه معنا فى اللحم والدم لكون الكلمة صار جسداً على ما فى الكتب فليكن محروماً . »

● ● ●

ويتبين من هذا كله أن ما قدمناه آنفا هو الصورة الصحيحة للمسيح « الكلمة » على الحقيقة والواقع سواء أكانت من جهة اللاهوت أو من جهة الناسوت ، فهو كالإله « أزلى » وأما كالانسان فهو « حادث » ، وقد اتحد فيه لاهوته بناسوته اتحادا ذاتيا فائقا لكل إدراك قد جمع بين ولادتين للابن أزلية وزمنية حتى أن وليد بيت لحم من العذراء مريم فى عرض الزمان مُحَيَّزاً هو بعينه المولود أزليا من الآب فى غير ما حيز قبل كل الدهور !! ولذلك فقد دعى المسيح بحق « ابن الله » و « ابن الانسان » لانه كلمته الذاتية الازلية التى تأنست فى عرض الزمان فى « سر التجسد العظيم » !!

ولذلك فقد ذهب شراح المسيحية الأولون ــ كما ورد فى كتاب الدفاع عن المسيحيين ــ فصل ١٠ ــ فى نسبة الخلق إلى « الكلمة » إلى القول الذى عبر به اثيناغوراس (الفيلسوف المسيحى) ونصه : « إن ابن الله ــ هو كلمة الآب فى الصورة والفعل ، لأنه على مثاله وبه قد صنعت جميع الأشياء ففيه صورة جميع الأشياء ، وهو القوة الفاعلة فى إيجادها أى الخالق لها متمماً إرادة الآب فى ذلك ، والكلمة لذلك هو رب واله وملك كل المخلوقات . وذلك لأن اسم « الكلمة » لا يدل على نسبة إلى « الآب » فقط بل إلى تلك الأشياء المصنوعة بالكلمة باعتباره القوة الفاعلة أيضاً فى ايجاد الكائنات !

فمن يكون هذا الذى تركزت فيه كل هذه الكمالات المجيدة ؟ أيمكن أن تكون هذه الإظهارات ــ وأصلها إلهى . وهى تعلن كمالاً سماوياً منقطع النظير ، وهى التى لم تظهر فى أى من الأنبياء ــ باطلةً وعبثاً !؟ وهذا محال فى ضوء ما سردناه ، فهل من المعقول أن يكون الذى ظهرت فيه هذه الكمالات مجرد إنسان ؟ حاشا ! فماذا إذاً !؟ هل الله يرفعه وأنت يا إبن آدم تخفضه !؟ هل يسميه القدير كلمته وابنه شاهدا بذلك لسمو شخصيته ، معلناً فيه الحكمة اللا متناهية ، والقوة الخالقة المطلقة ، وأنت تنزل به إلى درجة رسول وعبد وتقلل من شأنه بسبب تجسده الذى به احتجب الكلمة الخالق بانسان مخلوق خلقه لنفسه خلقاً جديداً غير مماثل ! أليس هذا عبث خطير مضاد لمشيئة الله المعلنة ــ وماذا يكون مصير من يقاومون القدير !؟

الفصـــل الرابـــع

المعانى الباطلة فى تفسير الكلمة

« لمـاذا لا تفهمـون كلامـى . لأنـكم
لا تقـدرون أن تسـمعوا قولـى . لأن
كلامـى لا موضـع لـه فيـكم »
[يو ٨ :٣٧ و ٤٣]

مدخـــل :

لم يكن قصدى من بحث هذه المواضيع العويصة الإقناع بما أعلنته المسيحية لأن ذلك هو عمل الله يهدى من يشاء ، ولا مجرد تقديم ردود على إعتراضات منتشرة فى هذا الصدد ، وإنما قصدى فقط هو تأدية الشهادة للحق الذى نؤمن به بدحض الإفتراءات الواقعة عليه بدون سند معقول أو منطق مقبول : قد وجدنا أن معظم المعترضين يرفضون المناقشة النزيهة لهذا الموضوع ويغلقون أعينهم ويسدون آذانهم لرفض قبول فكر أوسع لا أراه مما يصعب إدراكه إلا على من لا يريد أن يدرك ، ... نعم يوجد فى كل أمة وفى كل زمان أناس يقذف بهم الطيش ونقص العلم ، إلى ما وراء سواحل اليقين ، فإذا عرض عليهم شيء من الكلام فى النبوات والأديان ، وهمّوا بالإصغاء ، وآمنوا بما أوتوا عن الإختيار فى النظر ، وإنصرفوا عنه وجعلوا أصابعهم فى آذانهم حَذَرًا أن يخالط الدليل أذهانهم فيلزمهم العقيدة ...

ولكن المقارنة الخالية من التعصب تصل بصاحبها إلى ذهن مفتوح لا يقف عند حد التفسيرات الناقصة فلا يجد صعوبة فى الشرح الطبيعى والبسيط ! فإن التفسير لمجرد تأييد عقيدة معينة بدون مراعاة المعنى الصحيح أمر لا تخفى خطورته على أحد وذلك بالنسبة لأى عقيدة أيا تكون ...

من هذا المنطلق نواجه شتي التفاسير الباطلة التى ظهرت حول « المسيح ــ كلمة الله » مبينين أوجه بطلانها بالأدلة العقلية والمنطقية وذلك على الوجه الآتى :

أولاً : ما ارتآه قوم بأن المقصود « بالكلمة » هنا « كلمة التكوين أى الخلق » ، وأنها الصيغة الأمرية لقوله عز وجل « كن فيكون » ، أى أن الله تعالى قال بوجود المسيح فكان وأن هذه هى كلمته ألقاها إلى مريم :

ويتطلب جوابنا على هذا الرأى أن نذكر بصفة أساسية أنه قد كان من عظيم التدبير وجليل الرحمة وكمال العدل ورفيع الحكمة أن بعث الله كلمته الخالق الذى به خلق كل شىء االذى هو من جوهره وليس هو بمخلوق ولكن مولود منه قبل كل الدهور إذ لم يكن الله بلا كلمته قط ولا كان الكلمة برىء منه قط ولكنه نزل ــ بغير حركة انتقال ــ بقوامه القائم الدائم الثابت الذى لم يزل ولا يزول فالتحم بناسوت أخذه من مريم العذراء جارية طاهرة مختارة ، من الأصل المبارك من ذرية إبراهيم إصطفاها على نساء العالمين فولد منها من غير نطفة آدمية جرت عليها الخطية ومن غير مجامعة بشر ولا إنفكاك من عذرواية الجارية المقدسة إنساناً تاماً بجسده ونفسه الدمية وروحه العاقلة الكلمانية ــ فكانت هذه كلها له حجاباً ...

ومن هنا كان إتحاد « الكلمة » بجسد زمنى مشابه لجسدنا فى كل شىء ما خلا الخطيئة وحدها ... ومن ثم شاركنا هو فى اللحم والدم (عب ٢ : ١٤ و ٤ :١٥) فوجدناه بذلك قائماً من لاهوت أزلى قديم وناسوت زمنى محدث فى أقنوم واحد ! ومن هذا الوجه ــ أى تكوينه جسما هيأه وأنشأه الروح القدس من طبيعة العذراء ــ جسماً قابلاً للاتحاد بذلك الأقنوم المعبر عنه « بكلمة الله » ــ يصح عليه اسم الحدوث والخلق ... والأدلة متوافرة فى الأنجيل لتأكيد حقيقة ناسوته المتحد بلاهوته وأنه ليس خيالاً ولا شبحاً ، لأنه به تحقق ظهوره بين البشر ويقول جرجس ابن العميد الشهير بابن المكين فى كتابه : « إعتراضات والرد عليها » ص ٩ : « بأن الناسوت الذى اتخذه الكلمة من مريم العذراء بتدبير الروح القدس لم يتغير عن حقيقته ، فأطلق عليه اسم الصبى يسوع فى وقت الولادة الزمنية وأنه كان يتقدم فى الحكمة والقامة والنعمة (لو ٢ :٥٢) وذلك لتحقيق صحة القول بأن ناسوته كان ينمو ويتزايد فى أقطاره الثلاثة هذه وينشأ تدريجيا ، وأنه هو الذى قبل الصلب والموت ــ لأنهما من المحال أن يقعا على اللاهوت ، وهذا ما أثبته حتى فى عشية يوم قيامته مؤكداً أنها كانت لناسوته الطاهر الذى مات وقام دون أن يرى فساداً ...

فمن هو إذاً الذى يعتقد بعد هذا البيان أن ناسوت الكلمة : « ليس هو محدثا ولا مخلوقا ، ولا كائنا بعد أن لم يكن » !؟ ومن هذا الذى فقد عقله وصار دون الرتبة الانسانية حتى يعتقد أن اللحم والعظام غير محدثة !؟ لأن كل ما كان له لحم وعظم فهو من جملة المركبات ، وكل مركب فهو كائن بعد إن لم يكن . وكل ما إندرج تحت الكينونة فهو محدث لا محالة!! وكل هذا ليعلمنا أنه بعد اتحاد ناسوته بلاهوته لم يتغير جوهره المحدث بل كل منهما حافظ لجوهره وخاصيته — فهو واحد من أزلى وزمنى : مات بانسانيته وأقام انسانيته بقوة لاهوته ، فهو فاعل فى ذاته بذاته ... ... فاعل فى حقيقته الزمنية المحدثة بحقيقته الأزلية القديمة ، فاعل بوجه ومنفعل بوجه آخر ... فاعل فى ناسوته الزمنى بلاهوته الأزلى ، وقد أمات ناسوته بإرادته فى الوقت الذى أراده بحكمته ، وأحياه بسلطانه الإلهى كما شاء فى الوقت الذى شاء ... »

● ● ●

ورغم كفاية ما ذكرناه آنفاً لتفنيد هذا الرأى الذى نحن بصدده الذى يزعم خلق المسيح فإننا نستكمله بما يأتى من ردود أخرى وهى :

١ — إن الظن بأن المسيح خلق بكلمة الله خاطىء لما يأتى :

(أ) إن لفظ « الكلمة » إسم من الأسماء التى يتفرد بها المسيح :

ومهما يكن من أمر هذا الاسم إلا أن المسيح يظل وحده المتفرد بهذا الاسم ، ولذلك لم نجد شخصا أيا كان يدعى بالكلمة أو كلمة الله سواه ، حتى آدم نفسه الذى خلق بكلمة الله رأسا لم يُدع بهذا الاسم أو يلقب به ، بل أن موسى أيضا الذى كلَّمه الله دُعى « كليم الله » لا « كلمة الله » ! كذلك دُعى داود « نبى الله » و ابراهيم « خليل الله » ، ولكن ولا واحد من هؤلاء جميعا دُعى « كلمة الله » — فلماذا انفرد المسيح بهذا الاسم دون سواه إذا لم يكن هو بهذا اللقب الوصفى المعبّر عن « ذات الله » وهيهات أن يتساوى فى ذلك مع سائر المخلوقات لأنه لا يُعبّر عن الله إلا من كان إلهياً ومن ثم فإنه لا بد أن يكون لهذا الاسم « الكلمة » معنى « كلمته » أى « كلمة الله » و « الكلمة التى هي منه (أى من الله) أى صادر من الله ذاته **from Himself** وهو ما لا ينطبق على شخص آخر غير المسيح !! و قد دلل هو على ذلك بقوله : « أنا أعرفه لأنى منه وهو أرسلنى » (يو ٧ : ٢٩) ورد فى كتاب « منار الحق » لسير وليم

موير طبعة ١٨٩٤ الشرح الآتى عن ذلك : « كلمة منه إنما تعنى أن الكلمة صادرة من جوهر الله والضمير هنا عائد على الكلمة ، وكذلك فى الضمير التابع فى قوله اسمه « المسيح » ، وقد جاء الضمير ليس من نفس جنس الكلمة (أى مؤنث) لأن الشخص الذى تشير إليه مذكر ، ... وحتى ولو جاءت الضمائر مؤنثة لما كان ذلك مهما لأنها إنما تشير إلى « شخص » معلوم بالذات ، هو الذى سيولد من مريم وموضوع بشارة الملاك جبرائيل لها ...

(ب) **دُعى المسيح بكلمته أى « كلمة الله » ، وكلمة منه (أى صادرة من الله رأسا وليس بواسطة ما من جهة المصدر والجوهر) ، ولذلك جاء وصفه معرّفا « بالكلمة » ، ولم يأت نكرة أى « كلمة »** : والضمير هنا عائد على مذكر فى القول اسمه « المسيح » ، ولم يأت فى نفس صيغة « الكلمة » ـــ أى مؤنث ـــ وهذا يخالف قواعد النحو ، والإشارة فيه إنما هى إلى شخص سيولد من مريم ، ولذلك وجب أن يعود الضمير راجعا إلى المتكلم نفسه أى إلى الله وهذا ينفى حصر المعنى فى نطاق أنه جاء بكلمة الله وأمره بدون سبب متوسط أو أصل بشرى ، وواضح أن هذا القول نوع من التهرب ـــ لأن آدم نفسه خلق بدون أب أو أم بأمر الله ولكن لم يُدع كلمة الله ـــ وهذا يدحض القول بأن يسوع دُعى كلمة الله لأنه ولد بدون أب !! وكذلك القول أن مثله كمثل آدم فى خلقته فهو تمثيل بعيد عن الصواب لأن آدم من تراب أما المسيح ـــ له المجد ـــ فهو كلمة الله الأزلية الذاتية ـــ وشتان بين الأرض والسماء ... والخطأ من وجه آخر هو أن قبل آدم لم يكن الخلق البشرى كائنا لينحدر به النسل ، ولكن جاء المسيح بعد وجود الخلق وبعد تقرير نظام التناسل وبعد وضع قانون الطبيعة الذى قضى بأن ينحدر النسل من ذكر وأنثى ، فكيف اختلف النظام وانكسر القانون فى مجيئه وهذا أمر مُسلَّم به .

ويكون إذا الأمر ليس أن المسيح كمثل آدم بل هو فى الواقع أعظم وأجّل من ذلك حيث هو « الكلمة » الذى اختفى أمامه النظام البشرى وأنكسر له قانون التناسل لأنه هو وحده ليس مجرد بشرى كالبشر وإنما له وحده سلطان فوق سلطان الناموس البشرى وقوانين الطبيعة!! لذلك كان ميلاده المعجزة إنما لسبب طبيعته الإلهية « كالكلمة » ، ثم أن آدم بما أنه أول الجنس البشرى لم يكن بحاجة إلى أب بشرى بينما فى حالة المسيح كان ميلاده حادثا معجزيا لأنه تم بعيداً عن مجرى الطبيعة !! فالذى قبلته مريم فى

مستودعها إنما كان شخصاً سماوياً له طبيعة خاصة يؤكد ذلك أن « الكلمة » الذى بشرت به مريم كان موجوداً بالطبع قبل حلوله فيها — أى قبل نزولها لمريم — ولذلك فأنه بإعتبار ما كان عليه من التفرد الجليل كان ذلك سبب ولادته بدون أب !! وهذا هو سر عصمته التى تفرد بها عن آدم والبشر أجمعين مما ينفى ضلالة سوسينوس وهى قوله إن المسيح ليس سوى رجل كامل فى صفاته ولسنا ندرى كيف يوصف بالكمال ويوضع فى نفس الوقت فى مستوى البشر وجميعهم ناقصون غير كاملين ...

« فالكلمة » هنا إذن ليس معناها الأمر الإيجادى بلفظ « كن » بل هو ذات وهو المشار إليه فى الانجيل بالقول : « وكان الكلمة الله » (يو ١ : ١) وهو لا يحمل اسم الجلالة هنا بطريق المجاز كالذين دعوا آلهة فى الكتاب المقدس ... وهى تسمية غريبة لا تفسير لها إلا بالرجوع الى التوراةوالأنجيل — لأنه أيجوز لأحد أن يقتبس كلاما ويلبس معنى غير ما وضع له فى محله ويكون عملا صوابا !؟ — وقد علمنا من النصوص أنها لا تتكلم عن « الكلمة » كالمسيح المولود من مريم بل عنه قبل ولادته وولادة أمه بل وقبل خلق آدم والعالمين بالنص القائل : « فى البدء كان الكلمة » ، فلو كان المقصود بالكلمة « كن » المشار إليه لعاد الضمير عليه مؤنثا فكان يقال « فى البدء كانت الكلمة » أو أن اسمها « كن » لأن لفظة الكلمة مؤنثة كما سبق القول ، أما وقد عاد الضمير عليه مذكرا وقيل عن « الكلمة » إن اسمه « المسيح » فهى تعنى ذات لا أمر !! واذن بالقول بأن كلمته التى ألقاها إلى مريم تعنى الأمر الإيجادى أى أنه سبحانه وتعالى قال ليكن المسيح من مريم فكان منها — قول مردود بما سردناه آنفا مما لايصح معه القول بأن معنى « الكلمة » هنا هى تكوين المسيح فى بطن أمه وخروجه إلى الدنيا بأمر الله شأنه فى ذلك شأن آدم والسموات والأرض وسائر المخلوقات لا لأن المسيح كما أثبتنا بالضرورة : هو نطق الله الذاتى الداخلى فقط بل ولأن كل الخلائق مخلوقة بكلمة الله ومع ذلك فاننا لا نجد أحداً منها يدعى مطلقاً « كلمة الله » !!

وبالإضافة إلى ذلك فإننا نقر بأن « الكلمة الأزلى » وإن كان قد إتخذ ناسوتاً حقيقياً طاهراً وبريئاً من الخطية ، وهوناسوت محدث وبالتالى مخلوق والإ لما شاركنا المسيح فى اللحم والدم المخلوقين ، فإن جسده تكوّن وولد كما يتكون جسد كل إنسان ، إلا أن ناسوته هذا تكوين جديد لخلقة جديدة لم يسبق لها مثيل بفعل الروح القدس فى بطن البتول ، وقد أشار الكتاب إلى ذلك بقوله : « هيأت لى جسداً » (عب

١٠ : ٥) ، إلا أننا من وجه آخر نجد أنه لم يرد قط نص فى أى موضع من الكتاب المقدس بأن الكلمة صار مخلوقا ، مع أنه قيل بأن « الكلمة صار جسداً » (يو ١ : ١٤) ووصف بإنه « ابن الانسان » وأيضا « انسان » ، وذلك لأنه لسبب سموه الفائق وأزليته السابقة على التجسد لم ير الوحى من المناسب إطلاقا أن يصفه بلفظة « مخلوق » Creature إذ أنها خافضة لجلاله كما أنها لا تنطبق عليه إنطباقاً كلياً لأنه رغم تنازله نراه المتميز عن الخليقه والمتفوق عليها !

(جـ) **لقد ميز الوحى كينونة الكلمة عن كينونة الخلائق فبينما أورد عنه النص : « هذا كان فى البدء عند الله » أعقبه بالقول : « كل شىء به كان وبغيره لم يكن شىء مما كان »** (يو ١ : ٢ و ٣) وبينما يزعم الزاعمون بأن الكلمة هى لفظة الكينونة التى خُلق به السيد المسيح على حد قولهم ، وأن نفس هذه الكلمة هى التى خلق الله بها آدم والكون والبشر وكل ما فى الوجود لأنه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ... بل إن هناك من يرى بأن كلمة الأمر الإيجادى هذه عبارة عن كلمات متتابعة بعضها صدر منه وبعضها يصدر منه والبعض الآخر فى طريق الصدور (وهو بذلك ينسب كلمات الله إلى ذاته بالصدور منه وهى الكلمات التى أنشأت المخلوقات وكونت الكون وهى بذلك محدثة ظهرت فى الزمان وتجعل الحادث متعلقابذات الله) ، زاعماً فى نفس الوقت بإننا نقول بخروج الكلمة (أى المسيح) من الذات ، مستخدماً لفظة الخروج بدلا من لفظة « الصدور » التى نستخدمها فى هذا المقام ، وهى فيه أجدر من إستخدامها للكلمات الإلهية المنطوقة التى أنشأت الخليقة) كتاب [الله واحد أم ثالوث] وقد فات مؤلفه بعد أن توقف دون الإدراك الصحيح لمفهوم المسيحية بأن : كلمات الخلق التى نطق بها الله عندما شاء أن يُبدىء الخليقة تحتم ان يكون لله سبحانه كلمة أزلية غير حادثة ـــ هى مصدر هذه الكلمات كلها انها المسيح كلمته الوحيدة غير المخلوقة ، وهذا أمر غريب المنطق فى نظره أدى به إلى القول بأن المسيح ليس هو الله بحال من الأحوال !! مع أن لا غرابة فيما نعتقده فى الكلمة لأن أصعب منه بما لا يقاس نسبة كلمة التكوين أو الخلق لله وهى محدثة ومن ثم فإن هذا ما لايجوز لأنه لا ينبغى أن تكون ذات الله محلاً للأوامر والنواهى والإستحيازات وهذه كلها ليست قديمة إذ أن القديم هو ما لا يتقدمه غيره **فى حين أن هذه كلها من المحدثات ...**

أما وصف المسيح بالكلمة فمقصود به الكلمة القائمة بذات الله التى من أجلها قيل :

« كلمتك يارب تدوم إلى الأبد فى السماء » وفى موضع آخر : « أرسل كلمته فشفاهم » — وهى كلمة تامة ليست منفصلة أو خارجة لكنها لم تزل دائمة الوجود فى ذات الله ، وهى ليست مثل كلمته التى قالها وبها تكّونت الخليقة وأمر فخلقت والمعنية فى النص : « قال فكان . أمر فصار » (مز ٣٣ : ٩)

ومن ثم فإن إظهار رأى الله وإشهار مشيئته وإعلانها يقال عنه كلمة مجازاً ، وعلى هذا المعنى قول الوحى : قال الله ليكن نور فكان نور ... وقال الله ليكن جلد ... وقال الله لتكن أنوار ...الخ (تكوين ١) ولكن هذه كلها داخل الزمان وفى بدئه ، أما كلمة الله الذى هو ابنه الجوهرى الوحيد فهو واحد وفوق كل الأزمان ومساو للآب فى عدم الابتداء لئلا يكون الآب حينا ما عديم الكلمة . قال العلامة دينسيوس : إن الابن سُمّى الكلمة لأنه مولود من الآب كما أن كلمتنا وليدة عقلنا الذى هو روحى محض ثم كما أن بوجود العقل توجد فينا الكلمة لأن بها يدرك ويكون عقلاً كذلك وجود الابن مرتبط بوجود الآب بحيث لا يمكنك أن تتصوره بدون أن يكون الابن الكلمة كائن فيه وموجود : أما من ظنه كأحد كلمات الله التى تصدر عنه دون أن يتغير أو ينقص منه شىء أو ينفصل منه جزء أو عنصر أو أقنوم ويكون هذا الجزء المنفصل هو الله ذاته — فهذا فهم خاطىء ليس سوى ترديد لهرطقة سابليوس الذى أدعى أن اللاهوت أقنوم واحد ظهر مرة أباً وتارة ابنا وطورا الروح القدس ، وهو ما يتهم به هذا المؤلف المسيحية بغير وجه حق .

فإذا لم يكن الأمر كذلك فإن من حقنا أن نسأل الرافضين لازلية كلمة الله الذاتية — تُرى مع من كان يتكلم الله قبل أن يخلق الملائكة والبشر ؟ ولمن كان يسمع ؟ فإذا لم يكن يتكلم ولا يسمع فان ذلك ينسب لله العطل والعجز عن العمل بصفاته ، وأنه كان بحاجة إلى غيره من المخلوقات لتوقف ظهور صفاته عليها . وهذا يجعله قابل لطروء الحوادث وتغيير الأحوال لأنه أنتقل فى وقت ما من حال عطل صفاته إلى حال العمل بها — ومن المعلوم أن الذى تطرأ عليه الصفات وتحدث فهو حادث والحادث ليس بأزلى ، وحاشا لله أن يكون كذلك ... الأمر الذى يستلزم أن يكون للكلمة وجود دائم لانها تلازم العاقل الناطق فكذلك المسيح موجود أزليا مع الآب وهو منه وذو جوهر واحد معه وذلك لأن من إستلزامات الوجود الإلهى أن تكون لله كلمة وحيدة جوهرية وأزلية متصلة بغير إفتراق ، إذ أنه من المُسلّم به أن الله لم يكن صامتا أو عاطلا فى

الأزل ، بل كان له نشاط فكرى ذاتى — قبل ظهور الكائنات ، ولولا وجود أقنوم الكلمة فى اللاهوت لما كان هناك مجال للتعبير عن هذا النشاط أزلاً ، ولا كان أيضا هناك مجال لإظهاره عند الخليقة : إذ أنه القوة الحاوية للفكر الإلهى تصويرا وتعبيرا ولما كانت الخلائق الناطقة كثيرة ومختلفة الطبيعة والعزم ولها ابتداء فأن نطقها لا يقوم بذاته وهو مختلف . وأما الله الآب وهو واحد ودائم الوجود وتام فنطقه أيضا واحد وحى دائم الوجود وتام ... لذلك ليس فى الله نطق وكلمات كثيرة وعديمة القيام بذاتها لئلا يتوهم فيه نقصان وإستحالة وإرتقاء إلى نطق أعلى وإكتساب حكمة بل فى الله كلمة واحدة تامة قائمة بذاتها حاوية حكمته وقوته ومساوية له فى الأزلية ! أما معنى أن ولادة الكلمة من العقل فهو مقبول على وجه واحد ولكن ليس من كل الوجوه : أى كما أن ولادة الكلمة من العقل غير حسية هكذا ولادة الابن من الآب . أما غير ذلك فمنكر لانه لايصح أن يُمثل الله بالأنسان ، لاننا نجد أن صدور الكلمة فينا ليس واحدا بل كثيرا إذ يصدر من الكلمة الواحدة كلمة أخرى إلى ما لا يحد...أما الله فكلمته واحد . ثم ان الكلمة البشرية مجرد لفظة أما كلمة الله فأقنوم حى واجب الوجود ومصدر عام لكل نطق وحكمة وبه قيام الأشياء إذ بدونه لم يكن شىء مما كان !!

ومن ثم فلا وجه لتمثيل كلمة الانسان بكلمة الله هنا ، لأن الانسان بما أنه داخل زمان ومخلوق فكلمته ليس لها قيام خاص بذاتها وأما الله الذى لا ابتداء له ، وهو غير مخلوق ، فلا بد أن تكون له كلمة عديمة الابتداء وغير مخلوقة قائمة بنفسها فى أقنوم خاص ...

صحيح أن « كلمة الله الأمرية » — أى لفظ الأمر الإيجادى « كن » — ليست ككلمة الناس ، لأن مجرد نطقها يجعلها ذات مفعول وتأخذ كيانها فى الوجود بما تصنعه من المخلوقات (عب ١١ : ٣) وقد خلق الله كافة الموجودات بها ، وكل ما فى الوجود لا يزال قائما بكلمة قدرته هذه — ولكنها إنما هى فى الواقع منسوبة للمسيح « كلمة الله الذاتية » فهى صادرة عنه — وهى وإن كانت تقال « كلمة » بالنسبة إلى الخليقة لانها علة تكوين الكائنات إذ الكل قد تكوّن بها — إلا أنها مرجعة اليه إذ أنه هو الذى دعا الكائنات إلى الوجود فهو مُبْدِئها أى الذى منه ابتدات ، ومُنْهيها ، أى الذى إليه تنتهى . وهذا هو المعنى المتضمن فى قوله عن نفسه : « أنا هو الألف والياء البداية والنهاية يقول الرب الكائن والذى كان والذى يأتى القادر على كل شىء . » (رؤ ١ : ٨)

فالكلمة إذن ليس هو كلمة التكوين أى أنه ليس مجرد أمر وهو « كن » بل هو شخص إلهى صادر منه تعالى أزلى بلا ابتداء تتمثل فيه القوة الناطقة والمعبرة فى اللاهوت ، وهو لذلك غير مخلوق ... !

يؤكد ذلك أن الوحى إستخدم فى النص الذى صدّرنا به هذه الفقرة لفظة يونانية تختلف فى الصفة والمعنى بينه وبين المخلوقات الأولى الصادرة عنه وهى لفظة « آين » إستخدمت فى الفقرتين الأوليتين يراد بها الكينونة الدائمة أو « الوجود الدائم » أى كان ولا يزال مما يدل على أن الكلمة لم يوجد كمخلوق بل أنه كان موجودا منذ الأزل ولا يزال موجوداً إلى الآن كما سيكون موجوداً إلى الأبد ، وهذه اللفظة هى التى ترجمت إلى العربية « كان » وقد وردت فى الإنجليزية was بمعنى الكينونة المجردة بينما ترجمت الثانية وهى (engeneto) «اجنتو » ويراد بها الكينونة التى تمت فى الزمان لحدوث الضرورة وقد وردت فى القول كل شىء به كان وترجمت إلى الإنجليزية Were Made مما يفيد الكينونة المصنوعة ، ويصح أن تكون ترجمتها العربية : « به تكّون كل شىء ، وبغيره ما تكّون شىء مما تكّون » ـــ وذلك لأن كينونته أزلية أما كينونة من سواه فبالتكوين !!

وشتان بين كلمة التكوين هذه التى لا يمكن أن تشمله وهو الحامل كل الأشياء بكلمة قدرته فهو ليس فقط خالقها بل وضابطها من حيث ان من آثار قدرته كالكلمة الذاتية لله حفظ الاشياء الموجودة بعد أن اخرجتها إلى الوجود ...

ويتضح لنا من يوحنا ١ : ١ و٣ سابق الإشارة أن كلمة « البدء » الخاصة بوجود « الكلمة » ترجع إلى الأزل المطلق السابق على بدء الخلق أى البدء غير المبدوء ، وواضح من تكرار كلمة « البدء » فى القول : « هذا كان فى البدء عند الله ، فإن كلمة « البدء » هنا بعد ذكرها الاول تعلن أن هذا الذى كان فى البدء المطلق كان أيضا موجودا فى بدء الخليقة ، لأن القول الأخير مرتبط بالخلق فى القول « كل شىء به كان ... » أى أن هذا المسّمى بكلمة الله ـــ هذا بعينه كان فى البدء وقت الخلق عند الله » ـــ مما ينفى عنه الزعم أنه خُلق فى البدء ، وهو الذى قيل عنه : « كنت عنده صانعاً » . (أم : ٨)

• • •

فى هذا الضوء الشامل لا بد من مواجهة هذا التساؤل المصيرى وهو : « هل الكلمة مخلوق أو غير مخلوق ؟ فإن قيل غير مخلوق فهو الله طبعا ... لأن كل ما فى الله هو

الله حتما ومن المحال أن يكون الله بدون كلمة وذلك بوجه مطلق !! أما إذا قيل عن الكلمة أنه مخلوق فيستمر التساؤل : تُرى من الذى خلقه ؟ وكيف يتفق ذلك مع القول الوارد عنه بأن : « كل شيء به كان ... » إذ أننا نجد هنا إعلان محدد عن بداية الأشياء وانها كلها أخذت أصلها منه والفرق واضح فى التمييز التام بين جميع الأشياء والكلمة ــ فليس الكلمة هو المصنوع لأن كل شيء قد صُنع بالكلمة ــ كل الخليقة به صُنعت ومن المحال لذلك أن يكون هو من ضمنها إلا أذا قبلنا الافتراء المستحيل وهو أنه صنع نفسه !؟

• • •

هذا هو رأى المسيحية وعلمائها فى « المسيح الكلمة » فلايجوز تفسيرها من قبل الغير فى حين أنها مما لم يقع تحت تصرفهم بل تحت تصرف سواهم ... فاسمه « كلمة الله » مولود قبل ولادته من مريم مثبت له الأزلية ، ومن ثم فأن تفسير البعض له بأنه يعنى أنه خلق بأمر الله لا يعنينا بشيء وليس بملزم علينا نحن المسيحيين لاعتقادنا بأن الشخص المُسّمى « كلمة الله » ليس هو شخصا مخلوقاً بل هو الخالق ! إنه هو المشار إليه بالقول : وكان الكلمة « الله » وهو ملقب هنا بلقب الجلالة نفسه « الله » وهذا للتمييز بينه وبين من دعوا آلهة بطريق المجاز فى الكتاب المقدس !

(د) هناك فرق كبير بين « كلمة الله » و « أثر كلمة الله » فالمخلوقات ليست « كلمة الله » بل هى أثر كلمة الله . لأنها خُلقت بكلمة الله : هناك شهادات كثيرة عن كلمة الأمر الإيجادى أقر بها العبرانيون قبلنا نحن معشر المسيحيين وهى صحيحة مقنعة قد أفادتنا بأن الخليقة تكّونت بكلمته ، وكان موسى أول من كتب فى التكوين مبيناً ذلك ولكن سبق أن علمنا الفرق الكائن بين كلمة الله الذاتية وكلمته الأمرية وكيف أن الأولى أقنوم متميز أزلى بينما الثانية لا شخصية لها وهى ليست أزلية وانما صوت الكلمة الأزلى الذى ليس له بداءة لأنه كائن فى ذات الله من الأزل وإلى الأبد ... وهو بوصفه هذا الكلمة الذى كان فى البدء « الأزل السحيق » عند الله قبل التجسد وظهور الخليقة بأسرها !!

فهو الناطق فى دائرة اللاهوت معبرا عن القصد الإلهى فى إيجاد المخلوقات والمشورة الالهية فيما يتعلق ببدء الانسان : ومن ثم فانه من قبل التجسد كما من بعده كان الله

متكلما فى هذه الكلمة الأزلى وذلك إلى الأبد : لقد سبق أن تكلم به كلمات الأمر الإيجادى فى أيام الخلق الأولى دون أن يتوقف الله عن التكلم ، لأن كلمته الذاتيه وهى ابنه قد كلمنا فيها أخيراً فى هذه الأيام (عب ١ :٢) وقد أصبحت إعلانه الأخير النهائىَّ ، وليس فى ذلك غرابة إذ أنه كلمة الله بالاطلاق !!

فإن قيل بعد هذا أن « كلمة الله » وصف يصدق على سائر الكائنات فى السماء والأرض والهواء والبحر لأن الله قال عن كل كائن منها كن فكان ــ فإننا لا نجد مفرا إزاء ذلك من تقديم السؤال : « فلماذا اختص الله المسيح بتوجيه هذه الكلمة إليه فقال عنه « كلمة الله » حال أن الخليقة كلها ما خُلقت إلا بهذه الكلمة عينها ، ومع ذلك فإننا لا نجد أحداً من الكائنات يدعى مطلقاً كلمة الله !؟ فإذا كان هذا الزعم صحيحاً ، فلماذ لا يقال عن سائر المخلوقات : أنها كلمة الله !؟ ألم تخلق جميعا بأمر الله نظير المسيح ــ فى عرفهم ــ !؟ الآ يسوغ القول عن جميع الكائنات انها خلقت بكلمة الله فلماذا لم يطلق على أى منها « كلمة الله » كما سُمّى المسيح فى الانجيل ... !؟

● ● ●

أولا : لربما يقال : **إنه تسمى بكلمة الله لأنه خُلق بدون نطفة أب** ، : فأقول إن السموات والأرض وآدم وحوآء خُلقوا بدون نطفة أب فهل دُعوا كلمة الله ؟ وقد علمنا الوحى ماسبق أن أثبتناه أن الكلمة متصفة بعدم وجود بداية له نظير المخلوقات التى لها بداية . فإن فاتحة أنجيل يوحنا تبرز هذا المعنى أن الكلمة كان موجوداً فى البدء (الأزل) ولا ابتداء لوجوده نظير السموات والأرض اللتين قيل عنهما . « فى البدء خلق الله السموات والأرض » . (تك ١ :١)

ومن ثم فلا صواب للإدعاء على المسيح بأنه دُعى « كلمة الله » لأنه خلق بكلمة الأمر الإيجادية ــ كسائر المخلوقات ، إذ لا نصيب لهذا الرأى من الصحة : لأن المخلوقات وإن كانت قد خُلقت بكلمة الله إلا أننا لا نستطيع أن نقول أن كلا من الانسان والحيوان والجماد هو « كلمة الله » كما لا نستطيع أن نقول أن الخليقة هى كلمة الله بل نقول أنها . « خُلقت بكلمة الله » (مز ٣٣ : ٦) لأنها فى الواقع أثر من آثار كلمته وليست هى كلمته بالذات !

وقد ثبت مما قدمناه أن « الكلمة ــ المسيح » ليس مجرد نطق بأمر ما أو قوة تنفيذ لشيء ما بل هى شخصية سامية موجودة أزليا فى الله وهى منه وذو جوهر واحد معه ــ وهى اسم علم لهذا الاقنوم الفريد : **ومن المعلوم أن أسماء الاشخاص لا تقبل التبديل بالأمر المعنوى** ومن ثم فإن مثل هذا التبديل إنما هو من جانب المعترضين الذين لا يؤمنون بإلهيته فيضطرهم ذلك إلى جعل اشتقاق الكلمة من الأمر « كن » ، وقد جعل مؤلف كتاب : « مريم والمسيح » هذا التفسير منهجه ، مع أن الكلمة المسيح مذكر يقال فيها اسمه « المسيح » وليست مؤنثة حتى تتجه الى الأمر الإيجادى « كن » ! ولذلك فإن الكلمة ليست هى هذا الأمر !!

ومما ينفى تفسيرهم هذا أن الكلمة الذى اسمه المسيح هو الوحيد الكائن قبل القائه إلى مريم وخروجه إلى الدنيا ... ونشأته كانت بخلاف كل كائن بشرى من غير واسطة الأسباب المألوفة فهو بشر عجيب الشأن فى التكوين من هذا الوجه ، وآية من آيات القدرة العليا قد تمت بيد التكوين الإلهية الصرفة فلم يُسبق بالمقدمات كما فى عامة الناس

ثانيا ــ الزعم بأن المسيح « الكلمة » هو مجرد كلمة من كلمات الله شبيه بكلمة الوحى وانه كذلك لكونه رسولا عظيما من رسل الله يحمل كلمته للعالمين :

ماذا بعد أن فندنا بكافة الأدلة العقلية والمنطقية أن « الكلمة » فى مجالنا الدينى لا تستعمل حسب معناها اللغوى أعنى لفظاً أو أمراً إنما هى أقنوم إلهى وشخصية فريدة ــ وهذا يأتى بنا إلى نهاية المطاف فى مواجهة المعانى الباطلة التى ظهرت فى تفسير « الكلمة » وفى هذا الصدد نقرر بأن « المسيح » ليس هو كلمة من كلام الله كما يدعى مؤلف كتاب (الله واحد أم ثالوث) ، بل هو « كلمة الله » وهذا هو إعتقادنا فيه نحن المسيحيين بالتمام !

فمن موسى الكليم ومن الأنبياء القديسين قد تسلمنا علماً بأنهم سمعوا كلام الله ، ولكننا وجدنا فى مواضع شتى من التوراه إصطلاح « الكلمة » أيضا وفهمنا منها كيف ميزت بين الكلمة كأمر أو قول وبينها فى معنى العلم أو القوة الفعالة غير المنظورة وقد أوردنا إقتباسات منها تؤيد ذلك ، مما نتبين منه أن المسيحية لم تكن هى أول من قال بوجود « الكلمة » فى معناها الخاص غير العادى ...الأمر الذى فهمنا منه أن المسيح باعتباره « الكلمة » هو بخلاف كلام الوحى ــ أى كلمات الكتاب المقدس ــ لذلك فإننا لا نُسمّى كتابنا المنزل بالكلمة وانما نصفه « بأقوال الله » ... أما كلمة الله المسيح

فإننا نؤمن به هكذا لا لأنه نشأ بكلمة الله الخلاقة التكوينية بل لأنه نطق ذاتى صادر عن ذات الله سبق وصفه بكلامه النفسى ... وهذا هو مضمون الآعلان الانجيلى عنه !

ثالثا : وأما الزعم الأخير هنا بأن المسيح قد دُعى بالكلمة باعتباره رسول من الله وقد حمل كلمته كسائر الأنبياء ، فاننا نجابه ذلك بالقول : بأن المسيح وإن كان حقا كنبى ورسول قال له المجد : « لأن الكلام الذى اعطيتنى قد أعطيتهم » (يو ١٧ : ٨) وأنه كرسول الآب كان ينسب كلامه للذى ارسله ، ولكنه كان يتكلم دائما كالرب السيد معطى الوصايا كما هو واضح من قوله المتكرر : أما أنا فأقول لكم ... » مؤكدا بذلك بانه ليس كسائر الأنبياء الذين صارت لهم كلمة الله بل هو المصدر المباشر لها.. الا يلوح للإنصاف إذن أن تخصيص التسمية ليسوع بأنه « كلمة الله » يتضمن مميزاً لم يتميز به غيره — وإلا فلماذا إذا لم يُدع أحد غير يسوع بمثل ما دُعى به أى « كلمة الله » !؟ يؤكد ذلك أن هذا الاسم قد أختص به المسيح وحده دون سواه ، ومع أن جميع الأنبياء تكلموا بكلام الله إلا أنه لم يُدع أى واحد منهم بكلمة الله ، فهو الكائن الوحيد المسمى « كلمة الله » !! والذى تم به الإعلان الإلهى وأصبح كاملا نهائيا يختلف عن إعلانات الأنبياء السابقة التى كانت جزئية ومتدرجة أما القول بأن الكلمة كيان منفصل عن المتكلم — شتان ما بين المتكلم والكلمة التى تصدر منه ، لأن الكلمة ليست بأى حال ذاتا حالّه به أو كياناً مرتبطاً بكيانه ، مما يقصد به الفصل بين الكلمة وذات المتكلم فجوابنا عليه هو : كما أن الكلمة والعقل شيء واحد بحسب الطبيعة إلا أن الكلمة شيء آخر غير العقل حسب الموضوع ، فكذلك كلمة الله فإنه بحسب قيامه بنفسه — أى تمييزه فى اللاهوت كعين خاص بلا استقلال أو انفصال وهذا هو معنى الأقنوم — فانه بذلك يفرق عن الذى منه قيام نفسه ، وأما بحسب إظهاره وإحتوائه كل ما يُرى فى الله الآب فهو والآب واحد ، لأن كل ما للآب هو له . ومن ثم يُرى فى الآب كما فى الكلمة المولودة منه الكمال فى كل شيء ، فالكلمة وهى جماع العقل والنطق متولدة من الذات دون مفارقة أو تقسيم !! وكلمة الله الذاتية وهذا وصفها تختلف تماما عن كلمته الأمرية التى أمر بها فتكونت الكائنات وظهرت ، وهى ليست الاله الذى تكلم بها ولا كلمته الأمرية هذه هى نفس الأشياء التى تكونت بها !! مما يستحيل معه الطعن فى الكلمة الذاتية بإنه هو الله لأنها هى والمتكلم واحد !!

نعم لقد إختار الله الأنبياء ليكونوا رسله المرسلين منه مباشرة والمؤتمنين منه على رسالة قد كلفهم إبلاغها للشعب ، تكلم الله بهم جميعا فكانوا بأنفسهم حملة الرسالة الواحدة ،

ممثلى وشارحى الحق الإلهى ، ولكن ما هو حقيقة وصفهم بالنسبة للمسيح :

كانوا عديدين وكثيرين ، كانت رسالتهم بانواع وطرق متنوعة ، وكانت طاقاتهم متفاوتة القياس الواحد عن الآخر ، وأسماهم جميعا هو « موسى » الذى تنبأ عن المسيح ووصفه بأنه « نبى مثله » ولكن بعد كل ذلك نراه من الواضح بأنهم لم يمتلكوا الكلمة ، بل كانت الكلمة تأتيهم من وقت لآخر ولم يكونوا يفهمون تماما ما كانوا يتنبأون به ... ومع أن الله هو الذى تكلم بهم إلا إن اعلان كل منهم كان جزئيا ، أما الآن فقد إنتهى وقت الإعلان الجزئى الناقص وصار إعلان الله الذى يكلمنا فى الابن — كلمته الذاتية — تاماً وكاملاً !

كان الأنبياء كثيرين أما الابن فهو واحد ، كانوا عبيداً أما الابن فهو السيد ، كانوا زائلين أما الابن فسيبقى الى الأبد ، كانوا ناقصين إما الابن فكامل : إنه هو الذى يكلمنا فيه الله حاليا ، لأن رسالة الله الشاملة هى فيه الآن !

كان هو الكلمة الحقيقى الجوهرى الأزلى الذى تجمع فيه الإعلان الإلهى » فكان كلام الحياة الأبدية عنده بحالةدائمة وثابتة وساكنة — إذ هو ينبوعه ومصدره . ولذلك فقد شهد عنه الأنبياء قبل مجيئه أما هو فانه رسالةالآب إذ قال عنه : « له وحده اسمعوا » . كان الانبياء يقولون « هكذا يقول الرب » وأما هو فقال : « الحق الحق أقول لكم » . وهكذا تركزت فيه رسالة الله — التى فيها خلاصنا — لأنه لا يمكن لسواه أن يتكلف بهذه الرسالة أو يحملها للعالم ... إنه الإعلان الأسمى ورسالة الله الأخيرة وقد ترك الله للبشر أن يتدبروا أمرهم تجاهها ويقررون نحوها ما سيتوقف عليه مصيرهم الأبدى : إنه ذورة الإعلان ، فهو لم يأت كمجرد عبد أو ملاك أو رسول لكنه جاء كالكلمة الذاتية الذى بعد أن تكلم لتلاميذه على الأرض يكلمنا الآن من السماء . وهذا معناه بصفة قاطعة انه لايوجد بعد ذلك أى إعلان آخر من الله بحسب المفهوم الصحيح للكلمة فى المسيحية !!

فوحدة إعلان العهد القديم هى فى مسيح العهد الجديد الذى لولاه لما فهمنا معنى تلك الإعلانات ولا مفهوم أقوال الأنبياء — مما يرفع اقوالهم الى مستوى كلمات المسيح نفسه ، ويثبت ان العهد القديم هو من الله كالعهد الجديد تماما ، غير أن بالجديد اكتمل الإعلان الإلهى وأصبح تاما ونهائيا — فالمسيح « الكلمة » بذلك هو محور وجوهر الإعلان فى كل من العهدين أى الكتاب المقدس كله !!

هذه الكلمة الذاتية ـــ كما يقول تشارلز غور أسقف برمنجهام فى كتابه : « اللاهوت الجديد والدين القديم » ـــ هى « إعلان الله الذاتى الذى بلغ ذروته فى يسوع المسيح »، وهو إعلان نهائى بحكم الضرورة .. فليس هناك إعلان أكمل منه يمكن أن يُعقل ويكون مقبولاً وحاسماً . وبهذا يعّبر عن تسليم المسيحيين الأوائل والأواخر بهذا الإعلان باعتباره إعلان الله الذى بلغ أوجه وكماله فى المسيح فهو أرقى إعلان من الله إنه كشف الله التاريخى عن نفسه فى المسيح يسوع ... ! إنه كشف لا ولن يظهر سوى فى المسيح مركز وحدة الإعلان قديماً وحديثاً !!

• • •

لذلك ليس بين المسيحين من ينكر بأن كلام الكتاب المقدس هو كلام الله بالوحى وذلك لاعتباره كلام الوحى المنطوق على لسان أناس الله المختارين لهذه المهمة ، فقد تكلم الله به عن طريق الأنبياء ولكن المتكلمين هنا كانوا هم البشر الذين أوحى اليهم به ـــ **فالله هنا تكلم والبشر تكلموا ايضا بما أوحى الله به إليهم منطوقا على لسانهم ، وقد كلفهم بكتابة ما رآه لازما للتدوين والتداول كوحى مكتوب ومعصوم منسوب لله . إنه إعلانه الراسخ مكتوباً ونهائياً ، ولكن لم يكن هذا الكلام المدون فى كتاب الله إلا شهادة مباشرة للمسيح المبارك الذى هو كلمة الله بالذات ـــ وشتان اذاً بين كلام الله بالوحى وكلمة الله بالذات « فكلمة الله » هذه غير كلمته المكتوبة فى الكتاب المقدس ، « فكلمة الله » الذى اسمه « المسيح » ذات ، وأما الكلمة المكتوبة ليست بذات (ك . بيان الحق جـ ٢ للراحل يسى منصور)** ... وفضلا عن ذلك فإن مهمة كتاب الله العظمى إنما هى التطلع الى المسيح وذلك من بدايته إلى نهايته ، ولو ان هناك اناس قد فاتهم هذا الغرض ولم يدركوا هذه الغاية ... !

نعم قد تسمى « كلمات الله » بالكلمة ولكن شتان بين كلمة الله الذاتية وكلمته التعبيرية فأن الأولى شخصية متميزة وأما الثانية فلا شخصية لها ، وفضلا عن ذلك فإنها ليست أزلية لانها لم تبدأ فى الوجود إلا عندما « تكلم أناس الله القديسون بها مسوقين من الروح القدس » (٢ بط ١ : ٢١) اما كلمة الله الذاتية فليس له بداية واذ هو كائن فى ذات الله من الأزل والى الأبد ، ومن ثم ليس هو كلمته التى تكلم بها على ألسنة أنبيائه فى كتبه المقدسة وإن كانت هذه صادرة بواسطته ... ...

ولكن بما أن هذه الأسفار المقدسة تشهد عن المسيح ، فمن المنطق المعقول أن نذهب بالضرورة إلى المسيح ، علما بأن الحياة ليست فى كلام الله الذى تحتويه هذه الأسفار بل فى كلمة الله نفسه الذى هو « المسيح » ! وواضح أن كلام الله لا يفيد جمهور السامعين ما لم يكم ممتزجا بالإيمان فى الذين سمعوا ... فتقودهم بذلك إلى قبول المسيح الكلمة : وذلك لأن هناك شهادة متبادلة بين المسيح (الكلمة الحى) والكتاب المقدس (الكلمة المكتوبة) كل منهما يشهد للآخر . ولأن المسيح يشهد للكتاب فنحن نؤمن به ، ولأن الكتاب يشهد للمسيح فنحن نذهب اليه !

ولذلك كان من الضرورى لأجل تحقيق إعلان الله عن ذاته وصفاته عمليا أن لا يقف ذلك الإعلان عند حد تقديمه إعلانا وصفيا فى كتاب بل أقتضى ذلك أن يتجلى الله فى «الكلمة » ليفصح لنا عن غير المدرك فينقله من المعنى المطلق إلى الفعل الاختيارى . وهذا ماحدث فعلا بظهور الكلمة بيننا الذى فيه ظهرت صفات الله ومنحه وعطاياه — الأمور التى لم نكن نصدقها أو يصدقها غيرنا لولا أنه ظهر فعلا وحققها لنا بوضوح ! وقد تاكدنا من ذلك لأننا وجدنا « المسيح » يتكلم بكلام الله كمن له سلطان وقد نسب الوصايا والأوامر الإلهية إلى ذاته وليس كالأنبياء والرسل اللذين نسبوها للرب لا لأنفسهم ... فى جميع ما قاموا بتدوينه دون الوقوف على حقيقة مراميه ... لأننا لقصورنا الذاتى لا نستطيع أن ندرك مثلا ما هو الله فى قداسته المطلقة أو محبته المطلقة مهما بلغت الدقة فى وصفه ، لأن إدراكنا محدود ، والمحدود لا يدرك أدراكا كافيا أى معنى من معانى غير المحدود

ومن ذلك نعلم أن الكلام الموحى به من الله بواسطة أنبيائه لم يستطع أن يعطى البشر وصفا كاملا اختباريا عن الله ، وإن كان قد عرفنا قدراً من صفاته دون امكانية تكوين علاقة شخصية حقيقية معه ... لذلك تنازل الله وأعطانا إعلانا تاماً عن ذاته فى أقنوم الكلمة الذى به تم التوسط وأعلن الفداء للجنس البشرى ...

ومن المعلوم أنه لم يكن ممكنا إستيعاب هذه المعانى وإدراكها بدون أن يتم ذلك إختباريا ... حتى أنه لو كان الله إقتصر فى إعلانه عن نفسه على الكلام الذى أوحى به ، لما كان هذا بكاف لكى نعرفه المعرفة الذاتية.

ولذلك فإننا بالكلمة — (الذاتية) أى المعلنة لذات الله والمعبّرة عن صفاته ، إستطعنا أن نعرف أن الله محبة فعلا وأنه قداسة ورحمة وعدل ... الخ . ولم يعد الله لدينا الإله

المحاط بالغموض والإبهام ــ وهو كذلك عند تصوره (بدون الكلمة) ــ بل أصبح الإله المعروف لقلوبنا الذى نستطيع بفضل وساطة الكلمة أن نتصل به ونتوافق معه فى أفكاره وصفاته فى هذا العالم وفى العالم الآخر أيضا ، وهذه هى عين الحياة ، بل الحياة الأبدية !! (من كتاب الراحل عوض سمعان) وإستطعنا تبعا لذلك أن نحبه ونتوق اليه ونجد لذتنا الكاملة فى طاعته وعمل مشيئته !!

• • •

ومن ثم فإنه جدير بالذكر أن المسيح لم ينطق فقط بكلمة الله فكان يقول : « الحق الحق أقول لكم ... » ولذلك كان يتكلم بسلطان هو سلطان الله نفسه بقوله : « وأما أنا فاقول لكم ... » الأمر الذى لم يجرأ غيره فى مشاركته إياه ، ولكنه قدم نفسه أيضا باعتبار أنه هو « الكلمة » أى الحق نفسه فهو الوحيد الذى أستطاع أن يقول : « أنا هو الحق » فى حين أن هذا الوصف يستحيل أن يوصف به أحد من المخلوقين لأنه وصف لله ذاته ، ورغم الإرتباط الكائن هنا بين هذين الوصفين إلا أننا قد وجدنا المفسرين وعلماء اللغة يجمعون على أستعمال لفظين متميزين لكلمة الله الواحدة منهما يقصد بها وحيه المقدس ويستعملون له « كلام الله » والأخرى لرسوله الأمين « المسيح » ويقال له « كلمة الله » ، وهذا هو لقب مخلصنا اللقب الإنجيلى المحض والذى فيه استطعنا أن نرى كيف ان حياة المسيح تشرح لنا الكلمة المكتوبة كما أن هذه توصلنا الى حياة المسيح والتمييز بينهما واضح وظاهر ... مما يؤكد بأن المسيح ليس هو مجرد النطق أو الوحى الذى تكلم به الأنبياء والذى نستعمل له لفظة « كلام الله » فقد تكلم الله على لسان كليمه « موسى » وسائر الأنبياء وبملائكه ، ولكن لم يُلقب واحد منهم بأنه « كلمة الله » مع أن كلامهم هو من كلام الله ! ومن ثم فإن المسيح لم يدع « بالكلمة » لانه كرسول قام بإبلاغ الناس « كلام الله » أو لأنه تكلم بكلمة الله للآخرين !!

صحيح أن كلمة الله المكتوبة التى نطق بها بفم الأنبياء والملهمين ثم أمر بتدوينها كانت ولازالت منطق الإعلان عن الله وعما يريده ، ولكن ليس صحيحا القول بأن المسيح لم يكن أول الأنبياء ولا أخرهم ، وأن كل ما يضىء عقل الأنسان هو كلمة من الله ، وأنه منذ فجر التاريخ بدأت هذه الكلمة فى الهبوط ، وإنها قد جاءت ثانية فى عصرنا الحاضر تعلن عن نفسها بنفسها وتجعل كل أنسان داعيا لله ــ لأن هذه

أقوال مختلطةتبعد قائلها عن الحقائق الثابتة التى قدمناها وشرحناها فى متن هذا الكتاب ، ومهما يكن من أمر بشأنها فأننا نقول بأنه برغم ما تحويه من ادعاءات هى عين المتاهات ، مضاف اليها أقوال الأنبياء أنفسهم وهى صادقة وواجبة القبول ، ولكنها ليست هى التى إختزلت المسافة الحتمية الشاسعة جداً بين الله الخالق المتعالى غير المحدود والانسان المخلوق المحدود ونرى من ذلك أنه من المستحيل أن لا يكون الكلمة الهيا ، فنحن لا نجد أى من الأنبياء والرسل تسمى أو دعى كلمة الله !

وإنما بظهور المسيح الكلمة ــ وبه فقط تلاقى الحق المطلق غيرالمحدود بالواقع الانسانى والتحم به التحاما كاملا على مستوى الفهم والإدراك والإحساس القلبى البسيط : وذلك على أساس ارتباط الكلمة المكتوبة بالمسيح ، فلم يعد مستطاعا أن نقتطعها من الأنجيل لكى نتقابل بها مع أنفسنا بدون المسيح . وإنما يلزمنا أن نقتطع أنفسنا أولاً من العالم لكى نتقابل مع المسيح الكلمة فى الأنجيل وبدون ذلك لا تكون لنا علاقة حية بالمسيح (كتاب كلمة الله للأب متى المسكين) فكلام الله الذى جاء بالأنبياء بل ونطق على لسان السيد المسيح لا ينفى ولا يتعارض مع إعلان الكلمة المكتوبة عن شخص يدعى اسمه ــ « كلمة الله » فيه كلمنا الله أخيراً ولذلك هو كلمته الجامعة النهائية .

الفصــل الخامــس
أوصاف للكلمة تفوق الإدراك

« لأنك قد عظَّمت كلمتك على كل أسمك »
[مز ١٣٨ : ٢]

أساس كل ديانة هو أن الله تكلم ولذلك فأننا نعلم أن الله وهو « إله الآلهة » قد تكلم : لقد تكلم فى الخليقة كتاب الطبيعة فجاء عنها : « السموات تحدث بمجد الله . والفلك يخبر بعمل يديه . يوم إلى يوم يذيع كلاما وليل إلى ليل يبدى علما . لا قول ولا كلام . لايُسمع صوتهم . فى كل الأرض خرج منطقهم إلى أقصى المسكونة كلماتهم » (مز ١٩ : ١ — ٤) ونحن نجد فى هذه النصوص تأملات فى السموات المنظورة باعتبارها شهادة ناطقة لله غير المنظور ، لأن أموره غير المنظورة أى قدرته السرمدية ولاهوته تُرى منذ خلق العالم مُدركه بالمصنوعات (رو ١ : ٢٠) ولقد عاد الرسول بولس فى رومية ١٠ وقابل بين خدمة السموات هذه وخدمة الأنجيل فكليهما قد أنتشر فى كل مكان وخدمتهما بلغت إلى الجميع ... ! وهذا إعلان الطبيعة عن الله ، مع أن رسالتها لا تقدمها فى شكل كلمات مسموعة ... ! إنها تعلمنا عن عظمة الله وحكمته وصلاحه . فإن فضاء الكون يعطينا لمحة عن سعة الله اللا نهائية ، وإنسجام الطبيعة يكشف عن وحدة الله ، كما أن الترتيب والنظام يكشفان عن عدم تغير الله وإدراكه : إنها تحمل شهادة صامتة لقدرة الله وجلاله !

شهادة بأن الله هو الذى أبدع هذه جميعها ، وهذ هى شهادة الله للوثنيين الذين لا شهادة لديهم سوى شهادة الضمير ، لأنهم لا يملكون ولا يعرفون الوحى المكتوب . إنها شهادة يُسمع بها صوت الله بدون كلام ، تشهد عن وجوده ، وهى عامة ولجميع الناس إذ أن منطقها قد وصل إلى أقصى الارض ، ولا عذر لمن يرفضها ولن يتبرر عند محاكمته !

وقد تكلم الله أيضا بحضوره فى الضمير مباشرة ، لأنه لم يترك نفسه بلا شاهد » (أع ١٤ : ١٧) ، ولذلك فقد أعطى للبشر شهادة خارجية فى الخليقة وأخرى داخلية فى الضمير وهى المشار إليها فى القول : « لأن الأمم الذين ليس عندهم الناموس متى فعلوا بالطبيعة ما هو فى الناموس ، فهؤلاء إذ ليس لهم الناموس هم ناموس لأنفسهم . الذين يُظهرون عمل الناموس مكتوباً فى قلوبهم شاهداً أيضاً ضميرهم وأفكارهم فيما بينها مشتكية أو محتجة . » (رو ٢ : ١٤ و ١٥) . ولم يقف الله عند هذا الحد بل أعطى للبشر إعلانا متكاملا تاما فى الكتاب المقدس بعد أن تم تجميع أسفاره ! وكانت المفاجأة الكبرى ما إقتضته محبته العظمى من تقديم إعلان نهائى كامل عن ذاته فى شخص « المسيح » كلمته الذاتية ... هذا هو الذى يعلن عنه الوحى فى النص المقتبس فى فاتحة هذا الفصل بأن الله قد عظّمه على كل اسمه . كان الله قد عظّم اسمه فى الزمن القديم فظهر لابراهيم كالقدير ولموسى كالكائن ولنبوخذ نصر كالاله العلى ـــ فهذه الأسماء كلها مجيدة غير أن الله قد عظم الكلمة عليها كلها كما هو وارد فى النص المقتبس من المزامير آنف الذكر وذلك لأن اسم الله نفسه لم يكن ليعرف إلا عن طريق « كلمته » ، لأن اسمه الخاص « يهوه » وهو الأشهر هو أسم الكينونة أو الوجود لم يكن ليعرف إلا عن طريق « الكلمة » لأنها كلمته الذاتية واسطة إظهار ذاته وإعلان صفاته وإيضاح سيادته ووسيلة قدرته ، إنها هى التى كشفت عن أفكاره تعالى ومقاصده بل هى التى أخبرتنا ماهو الله ... !

إنه الاعلان الوحيد الفائق للطبيعة الكامل الإنسجام والتوافق ، والذى لا يمكن سبر غوره ولا بلوغ نهايته ـــ وهكذا يعلن الوحى تعظيم الله لكلمته بسبب كونها العامل المتوسط الذى تم به إعلان ذاته وصفاته ... !

على أن الإتمام الكلى لهذا التعظيم نجده فى تكريم الكلمة كالاسم وأكثر ، باعتبار أن الكلمة المقصودة هنا كما سبق التنويه إنما تدل على الشخص العجيب الذى يدعى اسمه « كلمة الله » ـــ ذاك الذى كان فى البدء عند الله وكان هو الله لكونه الحامل لكل افكاره ومشوراته ومقاصده ... فهنا « الكلمة » فى أسمى معانيها « المسيح » ، ومدح كلمة الله وتعظيمها هكذا إنما يعنى أن ما لله قد تلألأ فى « كلمته » هذه الذاتية ، فهو الذى كشف لنا بطريقة جديدة واقعية والعجيب هنا ورود حقيقة إنجيلية بغاية اليقين إذ قيل : « عن أعمال يديك لا تتخل » (ع ٨) ويقابلها : « نحن عمله مخلوقين فى المسيح يسوع » (أف ٢ : ١٠)

لا عجب أن جاء عن الكلمة قرب نهاية الكتاب المقدس القول : « أن الشهادة ليسوع هى روح النبوة » (رؤيا ١٩ : ١٠) وهذا يعنى أن علاقة صحة كتابات الأنبياء الحقيقين إنما هى شهادتهم ليسوع : فإن موسى والأنبياء جميعهم كتبوا عن يسوع وشهدوا عنه فكان يسوع هو مركز دائرة نبواتهم ... لأنه عن يسوع قد شهدوا بالروح الذى فيهم ... وهذه الشهادة عن يسوع أنه رب قد أعطيت لمؤمنى العهد الجديد وهم أنبياء هذا العهد بالروح ، بل أن شهادة الروح لبنوية المؤمن لله إنما تلى شهادته فيه لبنوة المسيح الإلهية ... ولا شك أن شهادة الله أعلى تصديقاً لأنها معصومة ، وهى التى شهد بها عن كلمته ، والمسيح نفسه الذى هو « الكلمة » لا يمكن أن يكذب ما دام الذى شهد له هو الله ، وهو الحق ، والمسيح نفسه قد وصف بأنه « قول الحق » ! وحتى إن قيل إن هذا مجرد لقب فجوابنا أن اللقب إما أن يكون معطى صحيحاً أو غير صحيح ، وهو عندما يعطى لشخص ما غير صاحبه فهل ينطبق عليه ؟ وأما إذا أعطى لصاحبه الحقيقى فإنه يقرر بذلك حقيقة معينة لا تقبل التنازع ... والله نفسه هنا هو الذى أعطى ليسوع لقب « الكلمة » فهل الله وهو الحق يتكلم بالحق عندما يصف المسيح بكلمته وبكلمة الله ؟؟ طبعا الله لا يتكلم كذبا ولذلك فإننا نختم بأن المسيح هو حقا « كلمة الله » !!

والآن ماذا تعنى لفظة « الكلمة » هنا ؟ ما هى وظيفتها وموضوعها ؟ إنها تعبر عما فى عقل المتكلم — أيا يكون نوع التعبير — فلو كان المسيح مجرد كلمة من كلمات الله فإنه يكون مجرد تعبير واحد عن مشيئة الله — ولكن بحسب قواعد النحو العربى يتحتم أن يكون معناها « التعبير الوحيد عن مشيئة الله » فماذا كان عمل الأنبياء إذاً ؟ نفهم أنهم تكلموا عن طريق كلمة الله الذى شهدوا له . فهو الأقنوم الناطق فى اللاهوت — هو الذى كلم آدم وجميع ذريته وهو الذى خبّر بذلك عن الله ، فإن من سمعه فقد سمع الله بالذات ... ومن ثم فانه ليس مجرد الكلمة الأمرية أو الوحى الذى تكلم به الأنبياء والذين يستعملون له كلام الله ، ولم يكن إتماما لكلمة وعد من الله تعالى بأنبيائه ولم يدع بالكلمة لأنه كان كرسول لابلاغ كلام الله للناس أو لأنه تكلم بكلمة الله للآخرين ... ولكنه هو — وهو الأقنوم الإلهى — الذى به أمر الله فكان وقال فصار ، فبه قد عمل العالمين لأنه هو الذى دعا الكائنات إلى الوجود وقام بتنظيم « الكون وأحقاب الزمن !! وبذلك ليست هناك صعوبة ما — فى أنّ لقب « كلمة الله » لم يعط لأى نبى آخر ! وواضح من ذلك أن المسيح وحده هو التعبير عن فكر الله ومشيئته ؟

وما دام الأمر كذلك فكيف يمكن أن يكون مجرد انسان مثل باقى الأنبياء !! أنما به فقط أمكن إعلان فكر الله ومشيئته ــ وهل كان بمقدوره أن يُعلن ذلك بدون أن يكون عالما بها ؟ إن كان هذا من المستحيل ، فهل يمكن أن يكون أقل من الله أو مختلف عنه !؟

• • •

لقد لاحظ علماء اللغة العربية بأنه بينما عبارة « كلمة من كلمات الله » تعنى كلمة من الله ومعناها ليس مجرد النطق الشفاهى بل تعبير أو حديث ، إلا أن عبارة « كلمة الله » نفسه تقدم مفهوما آخر وهو الإعلان الإلهى لما فى ذات الله ، ولذلك فأنه عند تطبيق الكلمة على الكتاب المقدس نجدها تأتى فى صيغة **كلام الله** لا « **كلمة الله** » !

ومن المعلوم أن هذا الذى وصف بالكلمة قد تحدد بوصفه المتميز المرتبط به وهو « المسيح » . [أى الملك الممسوح] ، واللقب الأول « الكلمة » هو سبب الثانى ، ومن ثم فإن الثانى ــ أى المسيح ــ إنما جاء وصفا للأول ــ أى « الكلمة » وكل ما قاله المفسرون فى شأنه إنما يرفعه قطعا فوق الملائكة والبشر أجمعين لأنه كلمة الله منذ الأزل قبل أن يخلق الله الكائنات !

وهكذا نرى فى ألقابه هذه حلقات متلألئة كل منها يضىء ما قبلها مقدمة معا المعنى المقصود ، وبجمعها معا نجدها تُظهر الطبيعة الفريدة للمسيح الكلمة :

فهو وإن كان نبيا لكنه ليس كالأنبياء الآخرين ، وهو الممسوح لكنه ليس كغيره من الممسوحين ، غير المدانى فى ميلاده الأزلى والزمنى ، الوجيه (الأمير) فى هذا العالم والعالم الآتى أيضا ...

ومهما اجتهدنا فقد لا يكون بوسعنا أن نجمع كل التفاسير التى قيلت عنه ، ولكننا نقول بأنها ــ أى هذه الشروح بأنواعها ــ إنما هى وسائل يقتربون بها منه بنسب متفاوته ، ولكنها لا تقاس بنصوص الأنجيل الواضحة وهى التفسير الأصح وخاصة وأنها فى حقيقة الواقع الأصل !؟ وهذا ما يستطيع أن يراه كل باحث عن الحقيقة من البوابة التى تقود إليها وضارعا أن يمر منها كالمنبع الوحيد !

فهل تعدى أهل الكتاب حدوده فيما أدركوه عن المسيح « كلمة الله » وفقا للنصوص التى أعلنت لهم ذلك فى نفس كتابهم هذا وفقا لما يشهد به عن المسيح !؟

وقد حقق لنا أن المسيح كان يتكلم من الله مباشرة لأنه هو « كلمة الله » فكانت كلماته شفافة لا تخرج عن الواقع قط ، وكاشفة تترك الحقيقة تعبر عن نفسها بالواقع والممارسة ... وذلك لكونه « التجسد الإلهى » الذى هو من الخوارق التى لا ندركها ولكننا نرى أثرها . فإن صانع الكون قادر مختار لا يمتنع عليه شيء إذا رأى أن يحدثه على أى هيئة يراها ... ! ولقد كان فرضا طبيعيا ما تطلبه الوساطة — التى سبق لنا التحدث عنها — من أن يكون القائم بها مساويا لله من جهة ومساويا للانسان من الجهة الأخرى ، فيصبح فى هذه الحالة حلقة الاتصال بين الله والانسان — ومعنى ذلك وجوب أن يكون الوسيط كائناً واحداً يكون إلها وانسانا فى آن واحد ، وقد تم ذلك عن طريق اتحاد اللاهوت بالناسوت فى « كلمة الله الذاتية » ! اتحادا ذاتيا بلا اختلاط أو امتزاج أو تغيير !

ويصف أثناسيوس الرسولى ذلك بالقول : « إن كلمة الله فى تأنسه لم يكن محصوراً فى جسده ، فإنه لم يكن حّالاً فيه فحسب بل كان حّالاً فعلا فى كل شىء ، فلا يتوهمن أحد أنه أصبح محصوراً فى الجسد أو أن كل مكان آخر أصبح خاليا منه بسبب حلوله فى الجسد » .

وذلك لأن « كلمة الله » . لا موضع له يكون فيه خارجا عن الله حيث لا يخلو منه موضع فهو كلمته يملأ كل شىء ولا يسعه شىء ، أزلى تام حى دائم ابداً لأنه من الله وفيه الذى هو هكذا ، وليس هما أيضا إثنان بفرقة ما فيما بينهما ... فإن الكلمة مولود بقوامه الذى تميز به ولذلك فهو غير والده الذى قوامه منه ولكنهما مع ذلك واحد فى الجوهر ، لأن كل ما يُعرف الله به من التمام فى كل شىء تُعرف به كلمته دون أن تفارقه قط حتى بعد أخذ طبيعة البشر بالتجسد المجيد الفائق !

● ● ●

هذا هو الكلمة الحاوى لأوصاف عامة تفوق الإدراك ، دعوه بها ورغم اختلافهم فى تحديد شخصيته إلا أن الكتاب المقدس قد أعلنه بوضوح فإن التوراة لم تقتبس الحقائق الخاصة به من الفلاسفة لأنها كانت قد أشارت إليه وإلى صفاته وخصائصه وأعماله قبل ظهورهم بالآف السنين . كما أن الأنجيل لم يقصد بالكلمة ما كانوا ينادون به وإنما إستخدم فقط من إصطلاحاتهم ما أتفق أن كان صحيحا حسب الحق الإلهى ليؤكد

للجميع بأن الكلمة الحقيقى معلن لله وواسطة خلق العالم والذى به يتم الاتصال بالله تعالى اقنوم الهى لأنه لا يستطيع القيام بهذه الأعمال سواه !

واعتقادنا إذاً فى المسيح أنه « كلمة الله » قد تأسس على أقوال أنبياء العهد القديم ورسل العهد الجديد الذين شهدوا بالوحى عنه بآيات واضحة كل الوضوح فى التوراة والأنجيل معا أى ليس عند مجىء المسيح إلى الأرض فقط ، بل وقبل مجيئه اليها بأزمنة بعيدة ، وتدل كل القرائن على صدق شهادتهم

ولكن ذلك لا يمنع أن نقدم هنا بعض الاقتباسات التى قيلت عنه خارج مصادر الكتاب المقدس آنفة الذكر ، وهى الآتى بيانها :ـــ

- إعتقد قدماء **المصريين** أن فتاح المهم هو الفؤاد وأن كلمته هى كلمة الخلق والتكوين .

- وإعتقد **الفرس** أن الله خلق العالم بالكلمة ، وأن الروح بعد مفارقتها للجسد ترقى سبع درجات حتى تعرف « كلمة الله » الخالقة .

- وعند **اليونان** قال هيرقليطس : إن الكلمة هى مبدأ الحياة والارادة الإلهية التى يخضع لها كل ما فى الوجود ، ولذلك فإن جميع أعمال الله تنسب إليها . ولذلك فإن الدين الحق هو مطابقة الفكر الانسانى « للكلمة » وقال انكساغوراس : « إن الكلمة هى القوة المدبرة للكون وهى الواسطة والصلة بين الذات الالهية والعالم ـــ فهو العامل فى الطبيعة والمتحرك بذاته لا بواسطة ، وهو جوهر مجرد (أى لا تركيب فيه) خالد ، واحد ، لا يتعدد .

وقال زينون : « إن الكلمة هو العقل الحق ، وأنه هو الذى يمد العقول الجزئية بكل ما فيها من نطق وعلم »

- عند **اليهود** :قال فيلون أن الكلمة هى البرزخ (الصلة) بين الله والعالم ، وهو الوسيط الأول والصورة الإلهية ، وبدونه لا تستطيع نفوس البشر أن تصعد إلى الله أو تتصل به ؛ ولقد كان معنى « الكلمة » عند اليهودى التعبير عن حلول المجد الالهى بهيئة منظورة فى سحابة المجد الاسنى فكانوا يربطونها مع « الشكينا » مجد الحلول الذى ترجمته العربية « السكينة » ... والترجوم يبين كيف تقدمت الفكرة عن الكلمة حتى وصلت إلى اعتبارها وسيط بين الله والانسان وقد ربطت بالحكمة

والقوة كتجسيم لحضور الله نفسه واعتبرت مساوية لتعبير « وجه الله » و« حضرته » ... وترجمت إلى ممرا ـــ أى اللاهوت معلنا .

● عند **المسيحيين** : قال القديس بطرس الأول أن الكلمة هو حلقة الاتصال بيننا وبين الله ، فبدونه لا نستطيع أن نعرفه أو نقترب إليه ، لأنه هو الذى يعلن الله ويظهره ـــ وقال القديس توما الاكوينى : ان أقنوم الكلمة هو الذى خلق العالم بأسره . وقد تأسست العقيدة المسيحية على اللوغس أى الكلمة ، وكان تطبيقها الخاص هو على شخص المسيح بإعتبار إنكشاف الوجود الإلهى فيه .

● ● ●

وأما علماء التوحيد وائمة فرقة قالوا هم أيضا عن « الكلمة » الشىء الكثير ، نوجز منه ما ذكره الغزالى عن كائن اسمه « المطاع » موجود ـــ وهو غير الذات الإلهية ـــ يحرك الأفلاك ويدير الكون وبه يعرف العبد ما لا يمكن إدراكه بالبصر والبصيرة ـــ والذى به يتصل الانسان بالله بواسطة الوحى والإلهام فيكون هو « التجلى الإلهى » أى مجال ظهور الله !

وقد دعاه ابن العربى « القطب » وإعتبره الأصل الذى يُستمد منه كل علم الهى ووصفه بأنه حقيقة الحقائق لكونه الكلمة الكلية الجامعة وهى اللاهوت ، باعتباره العقل الأول والروح الأعظم بالنسبة إلى كونه المبدع لكل شىء !

وإعتبرته الاسماعيلية الباطنية أنه أداة الخلق ومنبع العلم الباطنى والوحى وأطلقت عليه اسم « الهو » أو « الكلمة » ... وفى كل ذلك إقرار كاف بأنه كائن ما أسمى من أن يُدرك !

وقالت الصائبة والحنفاء : إنه المتوسط الروحانى يماثلنا من حيث البشرية ويمايزنا من حيث الروحانية . فيتلقى الوحى بطرف الروحانية ، ويلقيه إلى النوع الإنسانى بطرف الإنسانية وهذا هو معنى الوسيط بعينه !

أما الاشاعرة فقد قالوا : إن الكلمة هنا كحرف حادثة وهى صورة خارجية للكلمة بمعنى الحديث النفسى القديم القائم بذات الله ، وهو أزلى ، إذ هو صفة قديمة قائمة بذاته تعالى وهو مساوٍ لها فى القدم ...

وهذا الكلام النفسى الأزلى واحد لاتعدد فيه ، متميز مغاير لذاته تعالى ، ويظهر بصور كثيرة لمن يريد الله أن يظهره له ... واستطردوا إلى القول بأن كلمة التكوين « كن » هى تجسيم الكلمة ــ أى إظهارها بمظهر الشخصية ــ فهم لا يعتقدون أن التجسم هو فى أثر الكلمة (بحسب من يؤلون كلامهم) بل يرونه فى ذات الكلمة ! وبالاجمال فإنهم يرونه أول تجلّ للحق بعد مرتبة التنزيه أى أول صورة ظهر فيها الحق وخاطب نفسه فيكون لذلك اذن بمثابة اقنوم « الكلمة » عند المسيحيين !!

الفصـــل الســـادس

أمجاد الكلمة الذاتية والاكتسابية

« فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند
الله وكان الكلمة الله ... والكلمة صار
جسداً وحلَّ بيننا ورأينا مجده ... »
[يوحنا ١ : ١ و١٤]

● **الإعلان المبارك :**

لا شك إننا نحمده تعالى لإعلانه هذا الحق عن « الكلمة » إعلانا صريحا فى مواضع شتى من كتابه العزيز يتصدرها ما دونه الوحى فى فاتحة إنجيل يوحنا ...

وتعبير « الكلمة » هنا الذى عبر به يوحنا عن المسيح يطابق الإصطلاحات التى كانت مفهومة لدى علماء اليهود عن « المسيا » ولدى علماء اليونان عن « الكلمة » ، فالعهد القديم يؤخذ منه أن الله سيعلن عن نفسه بواسطة كلمته أو حكمته الشخصية ولفظ LOGOS الذى معناه « الكلمة » يدل فى الفكر اليونانى على العقل الإلهى الظاهر فى الكون والذى يوضح علاقة الله بخلقه : وهكذا جمع يوحنا ما لدى اليهود واليونان لوصف المسيح به ! وكان ممن أقر هذا الوصف فيلون الفيلسوف اليهودى المولود سنة ٤٠ ق . م . ويرجع السبب فى ذلك إلى أنه كان يستقى آراءه من التوراة وقد ورد بها عن المسيح أنه « الابن » وأنه « الكلمة » أيضا (تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٣٢٣)

ولقد اعتاد اليهود تسمية المسيح المنتظر « بالكلمة » ، ولاسيما الذين تشتتوا منهم بين الأمم وقد عرفوا الفلسفة اليونانية ممن كتب لهم يوحنا إنجيله ، فكانوا يفهمون ما تتضمنه تسمية المسيح « بالكلمة » من معانى ... لأن كلمة « لوغوس » تأملها

اليونانيون فرأوا فيها معنى الفكر والتعبير وهذا ما يقدمه يوحنا عن المسيح « الكلمة » فكما أن كلمة أى شخص هى ما يعبر به عن نفسه ويظهر به أفكاره وهى أداة إتصاله بالآخرين وتفاهمه معهم حاملة لهم مدلول شخصيته بما فيها من ذات وصفات : فهى إذا ليست مجرد حروف أو الفاظ وإنما هى صورة من ورائها العقل ومن وراء العقل الذات ، حتى أن كلمة المتكلم هى الرسم المعلن لذاته ... وهكذا نجد فى صدر إنجيل يوحنا هذا التمهيد الأصيل عن « الكلمة » وهويحتوى على اسمى الحقائق المتتابعة التى تكمل بعضها بعضا لتوضح لنا معاً أمجاد الكلمة الذاتية والاكتسابية : ونبداء بالأولى منها وهى تشغل الآية الاولى من إنجيل يوحنا ونرى فيها :ـــ

أولاً : أمجاد الكلمة الذاتية :

١ ـــ أزلية الكلمة : « فى البدء كان الكلمة » :

ما أعجب هذا الوصف الذى يوصف به « المسيح » بالكلمة هنا ـــ أنه أفضل تعبير عن الأسرار غير المحدودة بأقوال الانسان المحدودة . فإنه فى هذا التعبير قد وسعت اللغة البشرية نفسها إلى آخر ما تحتمل من التوسع فهى لا يمكن أن تحتوى على ما هو أسمى مما وصلت إليه فى هذا الوصف الذى يحمل معنى الفكر الداخلى المصوَّر والتعبير عنه لإعلانه للآخرين ...

هنا يرتفع البشير يوحنا « النسر الطائر » فى سماء الوحى ويحلق فوق الملأ الأعلى ويخترق مدى الزمان بأسره حتى يتمكن من معرفة لاهوت الكلمة لدرجة سمى معها « باللاهوتى » ولم يكن فى إستعماله لفظ لوغوس LOGOS اليونانى عن الكلمة وهوالذى إستعمله الفلاسفة من قبل مجاراة لهم ولا أقتباساً عنهم بل لانها تدل على ذات لا على مجرد لفظ لأن هذه هى « الكسيز » اليونانية ، ولقد كانت أزلية الكلمة أول ما كشف له الوحى المعصوم هنا وحققه به بأن إستخدمه فى تدوينه ...

وأما لفظة « فى البدء » فهى حجة دامغة ضد القول بأن المسيح وجد مع الزمان عند التجسد ، فإن وجود الكلمة إنما هو أزلى بلا بدء . إذ أنه هو البداية ولا تُعرف له بداية والنهاية وليست له نهاية !

« فالبدء » هنا هو « الأزل المطلق » قبل كل زمان وقبل إنشاء العالم (يوحنا ١٧ : ٥ و٢٤) أى قبل كل وجود مخلوق ، لأن الكلمة هذا هو الذى أعطى الأشياء وجودها وكُوّن العالم به (يو ١ : ٣ و١٠)

« والبدء » هنا فى يوحنا ١ : ١ غير « البدء » الوارد ذكره فى تكوين ١ : ١ والذى يقصد به « بدء خليقة الله » بينما هو فى يوحنا تاريخ سابق لبدء خليقته بل سابق لكل شىء يمكن أن يتخذ قياسا للزمن فى نظر الناس وغير الناس لأن هذا ما يستنتج من قول الوحى بعد ذلك « كل شىء به كان ... الخ » ولذلك فانه لا يقصد بالبدء هنا سوى الأزلية بعينها مما يؤكد لنا أزلية الكلمة ! ويؤيد ذلك أن الكلمة المترجمة « البدء » هنا هى فى الأصل اليونانى « أرخى » ويراد بها « قبل كل شىء » ولذلك ترجمت فى بعض نسخ الكتاب المقدس الأنجليزية «Originally» أى فى الأصل ، وأيضا فى ذات البدء «in the very begining» وطبعا لا مجال للإعتراض على أن معنى « البدء » الوارد فى تكوين ١ : ١ يختلف عن معنى « البدء الوارد فى يوحنا ١ : ١ » لأن الكلمة الواحدة تستعمل أحيانا لاكثر من معنى واحد ويفهم كل معنى من القرينة الواردة فيها هذه الكلمة ، كما هو معلوم لدينا ... فوإن كان كل من إنجيل يوحنا وسفر التكوين يبدأ بكلمة « البدء » الإ أن موسى إنحدر متمشيا مع التاريخ حتى حدثنا عن الخلائق ، أما يوحنا فارتقى صاعداً حتى أرانا الخالق ... ولذلك فإن التشابه اللفظى فى كلمة « البدء » ظاهريا فقط ، الذى يحدثنا عنه يوحنا هو « البدء المطلق » الذى عنده ينتهى الفكر ويعجز العقل أى البدء السابق للزمن إذ هو قبل كون العالم كليه ، أما البدء فى التكوين فهو بدء الخليقة !

ومما يجدر ملاحظته بالنسبة لكلمات إنجيل يوحنا الإفتتاحية انه لا يقال فيها : « فى البدء خُلق الكلمة » أو « فى بدء وجدت الكلمة » بل يقال « فى البدء كان الكلمة » ، أى أن البدء (أى الأزل) لم يكن بدون وجود الكلمة ــ فليس البدء هنا هو بدء وجود الكلمة ، لأنه إذا كان الأمر كذلك لا يكون الكلمة منذ الأزل أى أزليا ومن المعلوم أنه ليس هناك أزلى سوى واحد لا سواه وهو الله ــ لأن الأزلى هو غير المسبوق بالعدم والذى لا يتقدمه زمان بل هو واجب الوجود لذاته أى يستحيل عدمه ، أما الزمنى فهو ما يصح عليه اسم السبق بالعدم ومعناه يراد به أنه كان بعد أن لم يكن وهذا هو حد المحدث ... ومن المعلوم أن الكلمة فى ظهوره عند التجسد قد إتخذ ناسوتا ظهر به فى الوجود الزمنى و لم يكن موجودا من قبل وهو المنسوب إليه الولادة الزمنية من مريم ، وكمل تدبيره فى مقامه فى مستودعها تسعة شهور ليكون ظهوره جاريا حسب المجرى الطبيعى فى الولادة الطبيعية وقد قصر نظر المعترضين على هذا الوضع المرتبط بظهور الكلمة فى الجسد ظنا منهم أنه كفيل بأن يطعن فى أزلية الكلمة أو يغطى

عليها وهيهات لأن جوهر لاهوت الكلمة وهو أزلى لم يتغير ــ بسبب التجسد ــ عن طبيعته وحقيقته ولا استحال عن جوهره ... وفى ذلك فصل الخطاب لمن يريد الإقتناع بالحجة السليمة ومنطق العقل القويم !

أما مزاعم شهود يهوه بأن الله فى البدء خلق « الكلمة » LOGOS فلا ندرى أى سند كتابى أو مرجع من الوحى الإلهى به يثبتون هذا الزعم الفاسد فى حين أن للكلمة هذا صفات ذكرها الكتاب المقدس لا يمكن أن تكون لغير يهوه الله مثل قوله : « أنا هو الألف والياء ، البداية والنهاية ، الأول والآخر » وهذه العبارات يتحاشون ذكرها فى كتاباتهم لأنها تقف سداً منيعاً تجاههم وتقوض ضلالتهم من أركانها !! وأما قولهم بأنه : « فى بدء كان الكلمة » يظنون بأنه ينفى أزليته فانه لا يعنى ذلك بل أنه فى وجود هذا البدء بالإطلاق ، وُجد الكلمة كائنا ومعنى ذلك أن « الكلمة » كائن قبل أن يبدأ ذلك البدء أى أنه ليس لوجوده بدء ولا تعرف له بداية لأنه لا يقول من البدء أو منذ البدء بل فى البدء !!

ومن هذا الأوصاف التى لا يمكن أن يتكلم بها نبى عن نفسه ولا تنطبق على مخلوق ما أيا كان : مخاطبته للآب بوصفه كان معه قبل إنشاء العالم ، ومن ذلك نفهم أن يسوع المسيح لم يوجد كما نوجدنحن ــ إذ يبدأ تاريخنا بالحمل والولادة من بطون أمهاتنا ــ أما هو فالأزلى الكائن مع الآب قبل الدهور لا ابتداء له فهو يُعلن فى إنجيل يوحنا أنه قبل أن يأتى ويتجسد كان مع الآب وكان له عنده مجد ذاتى لا يشاركه فيه أحد مما يؤكد أزليته من كل وجه .

٢ ــ أقنومية الكلمة : « والكلمة كان عند الله » :

فى هذا المقطع الثانى برهان قاطع على أن للمسيح شخصية متميزة بمعنى أن له أقنوماً متميزاً فى اللاهوت من غير إنفصال لكونه متحد فى الجوهر الإلهى من غير إمتزاج ... وليس الغرض من ذلك التعريف بأسرار اللاهوت التى هى فوق الادراك بل توضيح حقيقة المسيح « كلمة الله » بالإعلان أولاً عن أزليته ، وثانياً أنه فى أزليته له وجود شخصى خاص (متميز عن أقنوم الآب فى الجوهر) ومع ذلك فإن هذا التمييز لا يعنى وجود إله آخر كأنّ هناك أكثر من إله واحد ، فإن هذا كله لا يفيد وجود إلهين لصدور الابن (الكلمة) من الآب صدورا أزليا ووحدته معه فى الجوهر الأمر الذى أعلنه بقوله : « أنا والآب واحد »

(يو ١٠ : ٣٠) ، وهذه الوحدة التى للابن مع الآب هى عين وحدته قبل التجسد وبعده أى أنها لم تتأثر بالتجسد مطلقاً .

وإذ هو بالطبيعة « كلمة الله » كان القول بأنه « ابن الله » قولاً صحيحاً لا غرابة فيه ، لأن الناس لا يستغربون من تسمية الكلمة المنطوقة « بينت شفه » لصدورها منها فكيف لا يكون المسيح ابن الله وهوذات كلمة الله !؟

أما كلمة « عند الله » فهى تعنى تميزاً له كمن هو قائم ـــ عين خاص ـــ فى الذات الإلهية ، ومن هنا إتضحت لنا الوحدة التامة العجيبة فى اللاهوت ! ومن ثم فان لفظة « عند » تعنى المشاركة بالتساوى ، ولما كان الجوهر الإلهى غير قابل للتقسيم والتجزئة بتاتاً لأنه جوهر فرد بسيط وغير مركّب لذلك كان المعنى المقصود هو أنه مساوٍ للآب فى الجوهر !!

ولا يقصد بهذه اللفظة « عند » المكانية أو الملكية بل الصلة الأزلية التى بين الله وكلمته وهى فى اليونانية « بروس » ومعناها « الإرتباط والتوافق » وفى الإنجليزية وردت «With» أى « مع » وهى تدل على نفس المعنى ، وفى اللغة العربية كذلك تدل على « المعية » معنويا أى على هذا المعنى بعينه !

فهذا النص يدل بكل وضوح على أن الكلمة كان ملازما لله ـــ وقد سبق أن عرفنا كيف أن الكلمة من إستلزامات الوجود الإلهى ، وبما أن الله لابدء له ، فمن البديهى أن يكون الكلمة الملازم له لا بدء له أيضا ...

وكل ذلك يدل على وجود شخص مشعور به متميز عن الله ولكن بغير إنفصال إذ هو مرتبط به ، وفى رسالة يوحنا الأولى ١ : ٢ نجد لفظة الآب مستخدمة فى نفس معنى الله هنا ... والتنبير هنا على تمييزه فى وحدة اللاهوت واضح تماماً كحقيقة لا تناقش ونرى فيها إنكار لأزلية المادة والزعم بأنها غير مخلوقة ، العقيدة التى كانت قد إنتشرت لدى العالم المفكر كله خارج اليهودية والمسيحية ، ذلك العالم (أى عالم المفكرين) الذى لم يعرفه !

٣ ـــ لاهوت الكلمة : « وكان الكلمة الله » :

وفى هذا القول يتضح لنا أن الكلمة هنا ليس كائنا دخيلا على الله أو غيره تعالى بل هو الله ـــ بإعتباره أقنوم من أقانيمه ولأن لكل منها الجوهر الإلهى كاملاً

إذ أنه لا يقبل التقسيم أو التفريد ... ومن ثم فإننا نجد هنا الإعلان القاطع على أن الكلمة (الابن) مساو للآب فى الجوهر ، ولفظة الله هنا معناها « جوهر اللاهوت » أى إنه هو والآب جوهر واحد : فالكلمة كائن منذ الأزل أى فى البدء المطلق عند الآب وهو نفسه الله لسبب الإتحاد التام فى الجوهر الواحد مما يدل على أن ذاك المتميز فى اللاهوت والمرتبط به بإتحاد فائق فى جوهره له طبيعة الله وجوهره ... وهو من الأسرار الغير محدودة التى لم تستطع اللغة المحدودة وصفها .

ففى القول : « كان الكلمة الله » نجده هكذا بالجوهر الذى به يمتلك الكلمة لاهوتا جوهريا صحيحا ... بسببه دعى باسم الجلالة « الله » كما سُمّى بالإله الحقيقى (اتى ٣ : ١٦ وايوه : ٢٠) ، وهوإن كان قائماً بذاته متميزاً عن الآب من جهة الأقنومية حال كونه موجوداً عنده من البدء ، وليس عنده فقط بل مساو له أيضا لأنه لُقّب بذات اللقب الملقب به سبحانه وتعالى ، وقد نسبت إليه أعمال إلهية خاصة كالخلق والحياة ، وهذا كله مما لا يجوز على غير الله فإن أحداً غيره لم يطلق عليه لقب الجلالة « الله » بأل التعريف ، بل سُمّى بعض الأشخاص ألها والجمع آلهة مما نتبين منه أن هذه التسمية مجازية لا حقيقية كما فى (مز ٨٢ : ٦) أما الكلمة المُسّمى « الله » فلم يقل عنه أنه جُعل إلها ولا قيل عنه إنه يموت كباقى الناس أى من حيثية كونه « الكلمة » فإذاً تسميته الله أو إلها ليس بالمعنى المجازى الذى سّمى به غيره بل بالمعنى الحقيقى وما كان ذلك ليوصف به لو لم يكن شخصاً إلهياً فريداً فى نوعه ! وبهذا النص قد تميزت كينونته السرمدية عن كينونة خلائقه ، علماً بأن « كان » لا تفيد الماضى المنقضى بل تعنى الكيان المطلق المستمر لأنها وردت فى صيغة الماضى أى غير التام الدال على الإستمرار ، فهو الله إطلاقا ولا يمكن أن يطلق ذلك على مخلوق ما أيا يكون !!

أما إعتراض البعض بأن هناك ترجمات وردت فيها العبارة هكذا : « وكان الكلمة إلها ـــ وليس الله (كما فى العربية) » فمردود لأن المخطوطات القديمة كانت تكتب كلها ببنط واحد فلايُرى فيها حروف صغيرة وأخرى كبيرة ، ورغم أن إداة التعريف لم تسبق لفظة الجلالة وهى Theos باليونانية فى النص المشار إليه غير أنه ليس من الضرورى أن يُعّرف لفظ الجلالة بأداة تعريف ، فإن لفظ الجلالة فى النص الواردة فى يو ١ : ١٨ فى القول : « الله لم يره أحد قط » لم يسبقه أداة تعريف ... وبالرغم من ذلك لم تترجم

إلهاً بإعتباره نكرة ، وعلى هذا فلا مجال للإعتراض بأداة التعريف ... كما أن النص الوارد فى رومية ٩ : ٥ وهو : « ومنهم المسيح حسب الجسد الكائن على الكل إلها مباركا إلى الأبد » قد وردت لفظة « إلها » هنا فى الترجمة الانجليزية « الله ـــ المبارك إلى الأبد » مما يضعف هذا الإعتراض ويجعله بلا أثر بالنسبة لما نحن بصدده من جهة الإقرار بإلهية المسيح ! وكأن كل عبارة فى هذه الآية الكريمة تُكّمل الأخرى مصححة أى إساءات فهم مما قد يثار حول « الكلمة » ـــ « أ كان الكلمة بذلك عند الله !؟ لم يكن ذلك مجرد تمييز وشركة مع كائن آخر وكأن هناك أكثر من إله بل أنه هو نفسه الله ـــ فى معنى الوحدة المطلقة للاهوت ـــ وهذا هو المبدأ الأساسى العظيم للديانة المسيحية .

ثانيا : أمجاد الكلمة الاكتسابية :

١ ـــ مجده كالخالق : « كل شىء به كان ... فيه كانت الحياة ... وكّون العالم به » ، (يوحنا ١ : ٣ و٤ و١٠) واضح من هذه النصوص أن كل الأشياء لها بداية ، وقد أخذت أصلها من « الكلمة » الذى به صُنعت الخليقة كلها وسرت فيها الحياة وهى فى أسمى درجاتها قد حملت النور لمن قبلوا منه هذه الحياة الروحية الأبدية ...

أما عن « الخلق » نفسه فإننا نجد هنا عن الكلمة الذى قام به وصف جامع مانع لأن « كل شىء به كان » وصف جامع ، « وبغيره لم يكن شىء مما كان » وصف مانِع ، وهذا الوصف بشقيه ينفى أن يكون الكلمة أحد الخلائق ، وقد ذُكر هذا الوصف بجانبيه الإيجابى والسلبى من قبيل التوكيد !!

ومن ثم فإن علاقة الكلمة بالعالم نراها تبينه كالخالق مصدر الحياة والنور ففى العددين ١ و٢ نرى الحالة قبل الخليقة وفى العدد الثالث الخليقة . ويلوح لنا أن البدء المذكور فى العدد الثانى هو غير البدء الوارد ذكره فى العدد الأول وإلا لماذا تكرر ؟ الأول يشير إلى الأزل المطلق قبل كون العالم ، وأما البدء الثانى فيشير إلى بدء الخليقة ،البدء الذى إستهل به سفر التكوين . فى الحالة الأولى « عند الله » تشير إلى المعية المطلقة ، وأما فى الثانية فإن نفس العبارة « عند الله » تشير إلى المعية عند الخلق ! وهو فى الحالتين كان « الكلمة » فى البدء ـــ قبل أن يتجسد ويحل بيننا ويصبح منظوراً من الناس مع أنه كان ذات الشخص الذى إلى لحظة التجسد لم يكن منظوراً من أحد ، بل لم يكن بإمكان أحد أن يراه وهو الساكن فى نور لا يدنى منه (اتى ٦ : ١٦)

هذا هو « كلمة الله » الذى له الحياة فى ذاته ، وليس ككلمة الناس التى ليس لها الحياة فى ذاتها — ولأنه هكذا فإن الله لم يخلق شيئا بغير كلمته — فلقد كان قادرا أن يخلق فى ساعة واحدة جميع ماخلق فى الستة الأيام ، ولكنه أراد أن يعلمنا بأنه لم يخلق بحسب سابق علمه الثابت فحسب دون أمر كلمته الخالقة ، وذلك لأن الله لا يتبعض ولا يتجزأ لأن جوهراً واحداً يجمع ذاته وكلمته وروحه كخالق واحد بأمر واحد ومشيئة واحدة بلا فرقة بينهم فى شيء من ذلك . لأنه ليس يميز بين أقانيمه هذه سوى خواصها الأقنومية فقط !

هذا هو « الكلمة » الذى بحسب ما ورد فى هذه النصوص عنه نجده خالق كل شيء فهو سابق للخليقة كلها أسبقية مطلقة « إذ هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل » (كو ١ : ١٧) — ونرى فى القول :— **هذا** كان عند الله . ضمير تأكيد (إسم إشارة) للدلالة على أن هذا الشخص عينه « الكلمة » كان عند الله أقنوم متميز لا صفة معنوية وهو بحسب الجوهر الله ذاته ، فنحن لا نقرأ أن الله كان الكلمة بل أن الكلمة كان الله بإعتباره شخصية حية أزلية قائمة فى جوهر الله — وهو مصدر الحياة والنور والعامل فى كل العالم والعصور ولم يكن يعرفه العالم فظهر باللحم والدم لكى نعرفه !

٢ — **نجده كالفادى : « والكلمة صار جسدا وحلّ بيننا ... الابن الوحيد هو خبّر »** (يو ١ : ١٤و١٨) لم تكن كل التعاريف السابقة لمجرد إعطائنا معلومات عن تمييزات سرية فى اللاهوت وإنما لكى تُعلِمنا من هو هذا الذى تجسد فى ملء الزمان وأصبح إنساناً ليس بالشبه فقط بل بالإرتباط الحقيقى — صار بذلك إنساناً تاماً كاملاً أعلن لنا الله — خبّر عنه — أى ترجم وحل الألغاز — كان له ذلك التجسد إتضاعاً ، إما للخليقة فكان سمواً لا مزيد عليه : وهو أساس الديانة المسيحية ، فلولاه ما كان الصلب ولا الفداء ... !

ذاك الذى هذه أوصافه فى اللاهوت حل بيننا فى الناسوت :

فى البدء كان الكلمة (فى الازل) ، والكلمة صار جسداً (فى الزمان)
كان عند الله (أى مع الله) ، وحلّ بيننا (أى صار مع الناس)
وكان الكلمة الله (بوحدة الجوهر)وصار جسداً (مشاركا لنا فى اللحم والدم »

فهو لم يكن الكلمة بالتجسد فالوحى لا يقول عنه هنا الذى صار الكلمة بل كان — وهذا وصف لكينونته السابقة لتجسده والتى هى أصلاً له — أما صيرورته جسداً فهى

حادث تاريخى يشير إلى التجسد ــ وهكذا يعلن الروح القدس (الوحى المعصوم) فى هذه الإفتتاحية المجيدة حالتى الكلمة السابقة فى اللاهوت واللاحقة فى الناسوت منبراً على أنه فى كلتا الحالتين فإنه هو الكائن فى حضن الآب (فى صيغة الحاضر المستمر) !

هذا هو الذى تكلم الله فيه قبل التجسد وبعد التجسد والآن هو يتكلم فيه وسيتكلم إلى الأبد هذا هو الذى لا تكفى كتابة هذه الصفحات عنه فمهما كتبنا عنه فإن الكلام يقصر دون بلوغ المرام . وهذا هو الاعلان الصحيح لعقيدة المسيحية عنه وفيما قدمناه فى هذا الكتاب الشرح الوافى والدليل الكافى لاقتناع أهل الفهم والإدراك ممن يصل اليهم فيقبلون الاهتداء به اذ ليس من قصد فى كتابته سوى الرضا الالهى بتبيان الحقيقة لذات وجه الله فحسب !!

تم الكتاب بعونه تعالى

رقم الأيداع : ١٩٨٨/٨٣٦٩

دار العالم العربي للطباعة
٢٣ شارع الظاهر — القاهرة ت: ٩٠٦٧٠٦

الإهــداء

إلى كل من ينشد الحقيقة لذاتها
مما يدفعه إلى تحريها والبحث عنها
للكشف عن إصولها الممتدة فى اعماق التاريخ
وإلى كل باحث يختار سبيل النزاهة والصدق
فيتجرد من الأنانية والتعصب وكل هوى
فى سبيل الوصول إلى « التعليم الصحيح »
وتقديمه ، ميراثا خالدا سالما لكل الأجيال ...
أهدى هذا البحث النفيس .

المؤلف

هذا الكتاب

هو اعلى قمة بلغها مؤلفه فى شرح حقيقة معنى ان (المسيح هو كلمة الله) وذلك خدمة لابناء المسيحية وكل الباحثين عن الحق لذاته وهو بكل اتضاع يضرع الى الله سبحانه أن يجعل مادة هذا الكتاب إضاءة لأهل الفهم ووسيلة لبيان الحق واعلان نوره لكل من أراد أن يقبله ويعترف به بإعتباره (الإيمان الحق) للعقيدة المسيحية السليمة عن المسيح وهى التى ألقت نجم المسيحية فى الشرق منذ أقدم العصور فى دفاعها المجيد فى المجامع المسكونية وذلك لأجل توحيد الرأى وجمع الكلمة حول مسيحها العظيم

والكاتب لم يفته أن يرجع فى كتابة هذا إلى كافة المراجع التى أتيحت له وذلك بفضل ومعونة الله وإرشاده

وأما فصول الكتاب بعد الاهدام والتقديم فانها تتحدث عن نفسها وهى ((تعريف الكلمة فى اللغة)) - ((مفهوم الكلمة فى اللاهوت)) -((الوساطة عن طريق الكلمة)) - ((المعانى الباطلة فى تفسير الكلمة))- ((اوصاف للكلمة تفوق الادراك))- ((أمجاد الكلمة الذاتية والاكتسابية))

وقفنا الله سبحانه للوقوف على الحقيقة لذاتها إبتغاء معرفة الحق والثبات فى سبيل رضائه والوصول إليه